# الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٦ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٠٥ | الثلاثاء ١٤ من ذي القعدة سنة ١٣٦٣ — ٣١ من أكتوبر سنة ١٩٤٤ | السنة السادسة

## فهرس العـــــدد





# مشكلة فلسطين

تحت هذا العنوان نشر الدكتور حليم حبيب دوس بحثاً في الثقافة (عدد ٣٠٠)، عرض فيه المسألة الفلسطينية عرضاً خرج منه القارئ على أن النزاع حول فلسطين هو نزاع بين الصهيونية والعروبة؛ كما قال إن الحرب الأوربية الأولى انتهت بعد أن قطعت إنجلترا على نفسها عهدين أولهما للعرب أخلفته وثانيهما لليهود أنجزته. والواقع أن تصوير المسألة الفلسطينية بهذه الصورة يتفق والسياسة الاستعمارية ويخالف الحقيقة والواقع، فلو كان النزاع حول فلسطين قاصراً على العرب والصهيونيين لهان الأمر وتيسرت الأمور؛ لكن المشكلة الفلسطينية قبل أن تكون قضية العرب واليهود هي قضية إنجلترا والإمبراطورية البريطانية. فالتاريخ يحدثنا أن الجنرال اللنبي وقف في اليوم التاسع من شهر ديسمبر عام ١٩١٧ أمام باب يافا بالقدس وقال جملته المشهورة: «إن الأرض الموعودة ليست للعرب أو الفرنسيين أو اليهود وإنما للإنجليز»! وعد الجنرال اللنبي بلاده فلسطين، وكان وعده هو الوعد الرابع، إذ سبق أن وعدت بها إنجلترا العرب في أكتوبر عام ١٩١٥، والفرنسيين في مايو عام ١٩١٦، واليهود في نوفمبر عام ١٩١٧، ووعدت إنجلترا نفسها في ديسمبر من العام نفسه. لذلك تهكم الساسة الفرنسيون على العهود الأربعة التي قطعت، والوعود التي بذلت، وأطلقوا — على فلسطين: «الأرض التي تعدد الوعد بها» — « too much promised ».

مشكلة فلسطين قديمة، وأقدم من مؤتمر بال الصهيوني الذي عقد في سويسرا عام ١٨٩٧. فنحن نعلم أنه في القرن التاسع عشر انتشرت بين أشراف الإنجليز فكرة (إرجاع

اليهود (Restauration of the Jews) ادعاء منهم أن رسالة المسيحية التي انسلخت من اليهودية لن تتم إلا بإرجاع هؤلاء اليهود إلى فلسطين . ولعل هذه الفكرة كانت تتصل اتصالاً مباشراً بالحقوق السياسية والنيابية التي نالها اليهود في إنجلترا ، والتي تقتضاها أسسوا عام ١٨١٧ ما يعرف بجمعية نواب اليهود البريطانيين (Board of Deputies of British Jews) . وقد شغلت هذه الفكرة الرأي العام البريطاني كثيراً حتى أثناء حروب إنجلترا مع محمد علي باشا عام ١٨٤٠ ، حتى قال إيرل أف شفتسبري (Earl of Shaftesbury) لوزير خارجية إنجلترا في ذلك الوقت وهو ( بلمرستون ) : إن الوزير أرسل من قبل الله لإرجاع اليهود إلى فلسطين . والواقع أن اهتمام إنجلترا بفلسطين في ذلك الوقت لم يكن رغبة في تحقيق رسالة المسيحية أو مساعدة اليهود ، بل لمصلحة الإمبراطورية البريطانية . ففلسطين تتصل بالشام ومصر [illegible] تقع على طريق الهند كما أشار بذلك صراحة الكولونيل ( جولر Gawler ) عام ١٨٤٥ في كتابه عن سوريا . والكولونيل نفسه هو الذي زار عام ١٨٥٠ فلسطين ورافقه زعيم يهود إنجلترا ورئيس جمعية النواب اليهود ، ألا وهو موسى مونتفيور . وهذا اليهودي هو الذي نجح في إدخال عدد كبير من أعضاء جمعية النواب اليهود في طبقة أشراف إنجلترا ، حتى إننا نجد من بين أعضائها في القرن العشرين أمثال السير هربرت صموئيل ، ولورد روتشيلد ، والسير روبرت ولي كوهين ، ولورد بيرستد ، ولورد ملشت ، ولورد ريدنج ، الذي كان نائباً للملك في الهند من ١٩٢١ — ١٩٢٦ ، ووزيراً لخارجيتها عام ١٩٣١ ؛ وهؤلاء وغيرهم من بين الذين وجهوا سياسة إنجلترا التوجيه الخاص نحو الشرق العربي وفلسطين .

لكن يهود القارة الأوربية تنبهوا للأغراض التي ترمي إليها إنجلترا من وراء سياستها نحو اليهود وفلسطين ، فسارعوا إلى تنظيم أمورهم بفضل (تيودور هرزل) المؤسس الحقيقي للصهيونية . ولما رأت إنجلترا أن المسألة كادت تخرج من يدها ، بادر وزير مستعمراتها في ذلك الوقت (جوزيف تشمبرلين) إلى استدعاء (هرزل) إلى إنجلترا ، وعرض عليه عام ١٩٠٣ وطناً قومياً لليهود ، لكن ليس في فلسطين بل في أوغندة ، وكان الوسيط بين الطرفين هو المحامي لويد جورج ، ووزير الخارجية (آرثر جيمس بلفور) الذي شاءت المقادير أن تضعه في نفس المنصب عام ١٩١٧ كما وضعت لويد جورج رئيساً للوزارة .

عرض (هرزل) هذه المنحة على المؤتمر الصهيوني السادس الذي عقد في بال عام ١٩٠٣ فرفضت . وأدرك الإنجليز أن اليهود يطمحون في المطالبة بفلسطين ، وأدركوا أن [illegible] يمد اليهود بالأموال الطائلة لاستيطان فلسطين [illegible] عن عرضها الأول وأخذت تتحين الفرص لتحقيق أغراضها ؛ ثم أعلنت الحرب الأوربية الماضية ، وإذا بأستاذ الكيمياء في جامعة منشستر وهو (حاييم فيزمان) يعد نفسه لتزعم الحركة الصهيونية . ويأتي عام ١٩١٦ فيستدعى من الجامعة إلى وزارة الذخائر الحربية حيث كان (بلفور) وزيراً للبحرية . ويلتقي الاثنان ويدور بينهما حديث ، وكان حول فلسطين ؛ وذلك لأن إنجلترا أدركت بعد مضي عامين من الحرب أن كسبها مرهون بإشراك أمريكا التي آل الحكم فيها إلى الحزب الديمقراطي نصير اليهود وحاميهم . لذلك سافر (بلفور) إليها ومضى هناك عام ١٩١٧ ليدرس الأمور عن كثب ؛ واقتنع أخيراً بأن نفوذ اليهود في البيت الأبيض عظيم جداً ، وأن إنجلترا لن توفق في ضم أمريكا إلى صفوف الحلفاء إلا إذا نجحت في كسب عطف اليهود هناك وإشراكهم في المسألة الفلسطينية . وقد أطلع (بلفور) على هذه الرغبة صراحة

اليهودي (لويز برنديز) أكبر الحائزين لثقة الرئيس ولسون وأعز أصدقائه في أبريل سنة ١٩١٧ . عرض بلفور رأيه على حكومته فأقتنعت به ؛ وأرسلت لوقتها يهودياً إنجليزياً وهو السير روفوس إسحاق (اللورد ريدنج نائب الملك في الهند فيما بعد) إلى أمريكا للاتفاق مع اليهودي الأمريكي (لويز برنديز) ؛ وكانت نتيجة الاتفاق اعتراف إنجلترا بجعل فلسطين الوطن القومي لليهود ، وعضدت الحكومة الأمريكية هذا الطلب وقدمته إلى مجلس الوزراء البريطاني . وهنا نجد الحكومة البريطانية تترك أسلوبها السياسي التقليدي ، وتوفق بين مصالحها وأماني اليهود القومية ؛ وذلك لأنها لو وافقت على المشروع كما عرض عليها لحسرت بترول الموصل والطريق إلى الهند ، والدفاع عن قنال السويس والشرق الأدنى .

ولعل الفضل في إصدار تصريح بلفور المكون من ثمان وستين كلمة ، والذي يعترف صراحة بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين مع المحافظة على الحقوق المدنية والدينية لغير اليهود من سكان البلاد ، يرجع إلى المدرسة الإنجليزية المصرية التي وضع حجر أساسها اللورد كرومر ، والتي كان عملها قاصراً على وادي النيل والحجاز والشام . ومن أكبر شخصيات تلك المدرسة (أوبري هربرت) أحد رجال قلم الاستعلامات السري و (ت . لورنس) و (ملنر) . وكانت تلك المدرسة تميل إلى جعل السيادة البريطانية في الشرق العربي مقسمة ؛ وأن تعترف إنجلترا لسائر الشعوب العربية بحق تقرير مصيرها واختيار نوع الحكومة التي تريدها ، أو تسمح لها بأن تكون فيما بينها حلفاً تحت إشرافها .

وقد خطت الحكومة البريطانية فعلا الخطوة الأولى في سبيل تحقيق تلك الأغراض عام ١٩١٣ ، إذ بدأ اللورد كتشنر الاتصال بالأمير عبد الله ( أمير شرق الأردن الحالي ) أحد أبناء شريف مكة . وفي يوليه ١٩١٤ ظهر الأمير مرة أخرى في القاهرة لمباحثات سرية مع الإنجليز . ثم أعلنت الحرب ، والأمير في الآستانة . ولم تكد تركيا تعلم أن روسيا انضمت إلى الحلفاء حتى سارعت إلى ألمانيا . وعجل الأمير بالعودة إلى القاهرة ، وضاعف الإنجليز نشاطهم لكسب العرب إلى جانبهم ، فكتب كتشنر خطاباً إلى الشريف أرسله مع ابنه ؛ فطالب حسين باستقلال سائر البلاد العربية (ما عدا عدن) ، وكان ذلك في خطابه المؤرخ ١٤ يوليه ١٩١٥ . ثم حدث أن خلف السير مكمهون اللورد كتشنر ، واستؤنفت المراسلات بين السير هنري مكمهون وبين الشريف ، وانتهت إلى وثيقة ٢٤ أكتوبر ١٩١٥ التي أجاب فيها الإنجليز مطالب العرب كاملة ، وكان هذا هو الوعد الأول الذي أيدته إنجلترا فيما بعد باتفاقها مع فرنسا في وثيقة أخرى بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٩١٧ وتوجد هذه الوثيقة مع سائر الوثائق في عمان ، والوثيقة بتاريخ ٨ فبراير ١٩١٨ . وفي ٩ نوفمبر بلغ الممثل الفرنسي في وشنجتون الرئيس ولسون اعترافات حكومته والحكومة البريطانية للعرب ، هذه الاعترافات القائمة على مبدأ حق تقرير مصير الشعوب . وبناء على هذه الاعترافات وتلك الوعود قاتل العرب إلى جانب الحلفاء هذا القتال الذي قال عنه الجنرال اللنبي أمام مؤتمر الدول الأربع الكبرى : إن مساعدة العرب لا يمكن تقديرها . ولما عقد مؤتمر السلام بباريس ، وتعارضت مطامع فرنسا مع وعود إنجلترا ، قال لويد جورج أمام ولسون : لقد حشدت بريطانيا ألف ألف جندي لمحاربة تركيا ، وبالرغم من ذلك لم تستغن عن مساعدات العرب !

لكن بينا توفق إنجلترا في الشرق إذ بالقدر يقسو عليها في الغرب ، فتهزم جيوشها في ٢٠ ديسمبر ١٩١٥ في غاليبولي ، وتجلو عنها نهائياً في ٩ يناير ١٩١٦ وفي كوت

ـ الإمارة بالعراق ـ اضطر القائد الإنجليزي (تونزهند) إلى التسليم في ٢٩ إبريل من العام نفسه ، فانتهزت روسيا وفرنسا حاجة إنجلترا إلى مساعدتهما وطلبتا منها بعض الامتيازات التي أقرتها إنجلترا في الاتفاقية المعروفة باتفاقية (سيكس — بيكو) في ١٦ مايو ١٩١٦ . وقيدت إنجلترا نفسها فيها بوعود لفرنسا تتعارض مع وعودها للشريف ووثيقة مكمهون التي لم تسمع عنها فرنسا إلا في مؤتمر السلام الذي عقد في ربيع ١٩١٩ . وكانت هذه الاتفاقية هي وعد إنجلترا الثاني . أما الوعد الثالث ، فقد كان لليهود في نوفمبر ١٩١٧ ، والرابع وعد الثنى لإنجلترا في ديسمبر من العام نفسه .

نجحت الدرسة الإنجليزية المصرية في الاحتفاظ بالسيادة البريطانية على فلسطين . وفي عام ١٩٢٠ أعلنت انتدابها وأصبحت المشكلة الفلسطينية أعقد من ذنب الضب . في الوصل آبار البترول وفي حيفا نهايته ، وفلسطين ضرورية جداً من الناحية الاستراتيجية لكل دولة تريد أن تهيمن على الشرق الأدنى ، أو تشرف على العلاقات بين الشرقيين أو الشرق والغرب . فلسطين إذاً يجب أن تبقى بريطانية ، ويجب أن تدافع عنها بريطانيا بمختلف وسائل الدفاع ؛ تدافع عنها ضد العرب وضد اليهود وضد التيارات السياسية العالمية . لكن العرب يدركون تماماً أن البلاد بلادهم ، يؤيدهم التاريخ ويقرهم الواقع ، فهم أسبق إلى فلسطين من بني إسرائيل . فالتاريخ يحدثنا أن تلك البلاد قطنها عنصران قبل أن يخرج الإسرائيليون إليها أحد العنصرين سامي ، وكان يتكون عادة من البابليين فالكنعانيين فالآراميين فالعرب ؛ وبعدهم جاء العنصر غير السامي وإليه ينتمي الحيثيون والفلسطينيون الذين نسبت البلاد إليهم ؛ ومن بعدهم جاء بنو إسرائيل . ولم يكد يستقر اليهود في البلاد حتى سباهم الأشوريون في القرن الثامن والبابليون في السادس ، وشتتهم البطالسة وطاردهم الرومان وأحرقوا معبدهم عام ٧٠ م ، كما أطلقوا على أورشليم (إليا كابيتولينا) . واستمر حال اليهود كذلك بين اضطهاد الوثنية والمسيحية وتشريد اليونان والرومان ، حتى جاء الإسلام فحنا عليهم وأحسن إليهم ، وبعث فيهم الرغبة في الحياة والاستعداد للمساهمة في تشييد الحضارة وقيام المدنية ، واليهود أنفسهم يقررون أن الفضل في ازدهار علومهم وآدابهم في مصر وشمال إفريقية والأندلس وسائر الأقطار الإسلامية يرجع إلى الإسلام والمسلمين . كل هذه المعلومات يعرفها العرب حق المعرفة ، فهم حريصون على الاحتفاظ بفلسطين وطن الآباء والأجداد ؛ والمسلمون حريصون عليها أيضاً لأنها بلد المسجد الأقصى ؛ والشرق العربي حريص عليها لأنها الحلقة التي تربط بين أطرافه ، والحجر الأساسي لمشروع الوحدة العربية .

دكتور فؤاد حسنين

---

على هامش الحكم

# فى ثنايا حديث

جرى الحديث فى المجلس عن مصر؛ وأى حديث تنبسط إليه النفوس انبساطها إلى حديث مصر؟ إن الآمال لتستشرف المستقبل، وإن الآلام لتطل عابسة من ثنايا العبر التنكرة فى الماضى، وإن القلوب لتتأمل هذه وتلك فى هزة خاشعة لا تحمل على الآلام حقداً، ولا تستلم الأمانى غروراً. بل تتطلع إلى الغد راجية أن يكون خيراً من الأمس فى خشوع المجرب الذى عرك الحادثات، وخرج من بينها بندوب تذكره بالنضال الطويل. وكانت الساعة صافية هادئة تجردت فيها النفس من الأهواء، وسبحت فى عالم المثل والصور، حتى شعرنا بأن المجلس يغشاه ضوء أزرق رقيق من أضواء الأفق الأعلى.

وكان النيل يجرى تحت أعيننا، ذلك النيل الذى شهد تصرم الأجيال وتقلب الدنيا بين الدول والأجناس، فكان يذكرنا بمصر الخالدة التى ابتنت على ضفافه مدنية وحيدة فى عالم موحش مقفر من المدنيات، والتى عاشرت أمم العالم واحدة بعد واحدة، حتى وقفت فى هذا القرن العشرين مرة أخرى فى مفترق الطرق، تدعو بنيها أن يشدوا المناطق حول الأوساط، وأن يستعدوا للوثبة الجديدة مع المدنية الجديدة.

لقد كان ذكر مصر فى ذلك المجلس عطراً للجو، ونشوة للفكر، وعلالة للقلب المتوثب القلق! ولقد خيل إلى وأنا فى ذلك المجلس أن قلبى ينفث لهباً بعد أن حسبته قد اكتهل وهدأ، وأحسست الشعلة القديمة تشب فجأة لتدلنى على أن الجمرة لا تزال هناك تتقد فى طى بكمنها، ولا تزداد على الأيام إلا تمعقاً.

كان الجمع من الأصدقاء فى منزل الدكتور بهى الدين بركات باشا، وهو غنى عن التقديم لأهل مصر جميعاً، فلا حاجة بنا معه إلى تقديم. غير أن شيئين فيه يقربانه إلى «الثقافة» ويجعلانه من أسرتها. فهو رجل من رجال الفكر الحر، والثقافة ما زالت منذ نشأتها منبر الفكر الطليق. وهو رجل وهب نفسه لمصر كافة غير مقيد بحزب، بل يخدم الحقيقة وحدها، والثقافة منذ أوليتها تهب نفسها لمصر كافة، ولا تخدم إلا الحقيقة وحدها.

وتشعب الحديث وتدفق حتى بلغ الحكم ومسئوليته أمام الأمة، فقال أحد الأصدقاء مشفقاً: «لقد شاعت فى البلاد التهم حتى سادت الظنون، ولا ندرى إذا صحت قالة السوء هل يمكن الإصلاح؟»

فأجاب صاحب الدار يتحدث فى صوته الهادئ:

«ليس من الحق أن نحكم على الأمة بما نراه على ظاهرها. [illegible] كل الخير، ولا أمة اجتمع لها كل الشر. هكذا كانت الأمم قديماً وحديثاً، وهكذا الأمة المصرية اليوم. فكل شعب يضم ثلاثة صنوف من الناس: صنف من الأخيار الذين يميل بهم الطبع إلى تحقيق الخير، وهؤلاء طائفة صغيرة تختلف نسبتها إلى جمهور الشعب؛ فقد تزيد فى بعض البلاد، وقد تنقص فى الأخرى، ولكنها فى كل الأحوال قليلة إذا قيست بمجموع الأمة. وهناك صنف آخر من الأشرار الذين يدفعون بالجرأة على مقارفة الشر، وهم كذلك فئة قليلة إذا قيسوا بمجموع الأمة. وأما كثرة الناس والسواد الأعظم من الأمم، فأفراد يجاهدون فى غمار الحياة، فيهم دوافع كامنة غامضة، لا يوجبون على أنفسهم واجباً فى الخير، ولا يقحمونها قسراً فى مقاحم الشر؛ وهؤلاء قد ينصرون كتيبة الخير، كما قد تنتصر بهم كتيبة الشر، لأن فيهم عناصر كل ذلك متفاوتة كامنة. ومن هنا تتمثل لنا

مسئولية الحكم . فإذا أتيحت للأمة قيادة من الأخيار أظهرت كل ما في سواد الشعب من عناصر النبل والكرم والإيثار والتضحية ، وإذا تولت شئون الأمة قيادة من الأشرار ، أظهرت كل ما في سواد الشعب من الجشع والأثرة والظلم والقسوة » .

وساد المجلس صمت قصير . ونظر صاحب الدار إلى ماوراءه نحو النهر الساكن الذي كان يتلألأ تحت أنظارنا . ثم انطلق صوت متحمس فقال :

« وهكذا استطاع الرسول عليه الصلاة والسلام أن يسمو بالعرب مع رسالته إلى أعلى الآفاق ، وهم هم العرب الذين كانوا من قبل أضيع الأمم شأناً » !

— وقال صوت آخر :

— وهكذا استطاع سعد أن يحدث في مصر تاريخ نهضة .

وقال ثالث في حيرة :

« ولكن هذا الرأي يبرئ الأمم من تبعات الحياة ، ويجعل الحكم هو المسئول وحده ، مع أن روح الحكم أحرى أن يكون صورة من روح الأمة » وتطاولت الأعناق نحو السائل تتحفز للجواب ؛ وسبق صاحب الدار هادئاً فقال :

لاشك في أن الحكم والأمة يتكاملان في الصورة ولو بعد حين ، فحيث تسمو الأمة في مجموعها يسمو الحكم بغير شك ، وحيث تسف الأمة في مجموعها يوشك الحكم أن يتبعها إلى الإسفاف . ولكن الذي يأخذ بيد الأمة نحو العلا أو يتدهدى بها إلى الهوة هو رأسها . هم قادتها المسئولون عن مصائرها .

فعاد السائل فقال :

ولكن الأمة تختار قادتها ، وهم يكونون على صورتها ، فالمسئولية الكبرى عائدة إليها لأنها هي التي أخرجتهم على الصورة التي تختارها ! نعم . قد يفرض بعض الناس سلطانهم على الأمم قسراً ، ولكن سلطانهم لايدوم إلا حيناً قصيراً مادامت لهم القوة على القسر والإرغام ؛ ثم تعود الأمم فتنطلق وتختار لنفسها .

فقال صاحب الدار في حرارة :

لك أن تقول ذلك بغير شك . فالأمة هي التي تختار قادتها ولو كان ذلك بعد نضال طويل وتجارب مُرّة . ولكنها إذ تختارهم تلقي إليهم قيادها وتأتمنهم على مصيرها ، فليس لهم أن يعتذروا بشيء في الأمة ، أو يحاولوا الاستتار وراءها . والأمم لاتتردد في طاعة القادة فيما يتجهون إليه إذا أنست منهم أنهم يتخيرون لها السبيل في حزم ونزاهة ، وإذا وثقت أنهم يعملون لها ويخلصون في النصح والاجتهاد في خدمتها .

إن القادة أشبه الناس بالرعاة . وصورة الراعي هي الصورة الطبيعية للزعيم . فالقادة مطالبون بأن يتخيروا السبل للشعوب التي يرعونها ؛ فإذا ادعوا أنهم قد ضلوا السبيل ، لأن الأمة هي التي ضلت بهم ، كانوا مثل الرعاة الذين يعتذرون عن هلاك القطيع بأنه هو الذي صرفهم عن سواء السبيل وجمح بهم إلى الهاوية .

وأي راع ذلك الذي ينقل طرفه في سواد قطيعه متردداً ، ثم يلحق به حيث سار ؟ . .

وعاد الصمت حيناً واتجهت الأنظار إلى النهر الهادئ الذي عاشر طوال العصور ، وسبح الخيال وانياً نحو المستقبل عند ما يتعاقب على هذه الأرض جيل بعد جيل ، وتمثلت لنا سيرة هذا العصر الحاضر ، إذ تتناقلها الأحاديث بعد دورة السنين الطويلة ؛ وسألت نفسي : ليت شعري ماذا يكون حديث المستقبل عن هذا الحاضر ومكانه بين حقب الزمان ؟ !

« م »

# حكمة

أيها الأمل الذى لاح فى أفق حياتى باسما كالزهرة الفاتنة ، آسراً كالنظرة الساحرة ، مشرقاً كالومضة اللامعة !

أيها الأمل الذى انتشر كالضياء الشامل ، فجذبنى لرؤيته ، لقد دنوت إليك فامتلأت يوى بأشعتك . ولكن لما انصرفت عنك أدركتنى الحلكة الدامسة فبت أسفاً حسيراً ، ساهماً حزيناً !

أيها النور الذى انبثق فجأة أمام عينى فملأ الفراغ كالبحر الموار ، وأحاط بالكون كالأثير المنتشر ، فأفعمنى هداية ، وأفعمته عرفاناً ، لقد أحسنت إلىّ ، ولكنك أيأستنى لما تلاشيت رويداً رويداً فى الأصيل . فهل ستضيء سماء قلبى غداً أم ستتركنى أعانى الآلام ؟!

أيها النغم الحائر على شفة الحبيب [illegible] الخلق الوحيد ، مضطرباً كاللحن [illegible] صوت ملاك يبحث عن رسول [illegible] عقاباً للهجران ؟!

أيها الخلجة التى هبت فى صدرى المكلوم فهزت جميع أعماقى ، عاصفة كالريح العاتية ، ثائرة كالأمواج الطاغية — كلما تذكرتك شعرت بعتاب الحبيب الحنون ، وأحسست بالعقاب والتأنيب وذقت نار الحرمان !!

أيها الأوار المشتعل فى فؤادى ليل نهار ، كلما سعيت فى إطفائك انبعثت منك ألسنة النيران ، وكدت لا تبقى على سويداء قلبى ، فهل سيمدك الحبيب طويلا فتحرق عودى ، أم سيخمد جذوتك الإنكار والنسيان ؟!

أيها الطيف الذى أشعر به ، ولا أراه ، أأنت الذى ترشقنى بسهامك الصائبة ، وتهز شعورى بوحيك ، وتقوى خيالى بوحيك فتدفعنى لكتابة هذه الكلمات ؟!

أيها اليوم المحدود الذى اختفى وراء الأبصار ، ثم أشرف على آمالى ، ثم دنا ، ثم أبطأ فى الهبوط فأخلف الوعد ، ونكث العهد ، متى ستتحت الظلل فتدرك الحبيب الهارب ؟

أيتها البسمات التى خلقت بين الشفتين فما عمّرت أكثر من لمح الأبصار ، أأنت ناموس التجدد فى عالم السرور ، وبشائر الحب التى تترى للفؤاد المؤمن !!

فتحى محمد سفل

---

## مقطوعتان لم تنشرا

### فى ديوان حافظ

**الرجاء واليأس**

[illegible] لولاك راحةٌ
فرُدَّ لنا بالله ما أنت سالبُه

فأنت امرؤ أطمعتنا وحملتنا
على مركب لا يهدأ الدهرَ راكبه

* * *

**خيبة الأمل**

وخيَّبَ آمالى وقوفُك دونها
وأنك عند الظالمين مكينُ

يسرك أنى نائم الجَدّ عاثر
ويرضيك أنى للخطوب ألينُ

ليَهْنيك مابى من أسى وخصاصة
وتقليبى الكفين حيث أكونُ

زعماء الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث :

— ٣ —

# السيد عبد الرحمن الكواكبي

عرض «الكواكبي» بعد ذلك لأثر الاستبداد في فساد الأخلاق ، فالاستبداد يتصرف في أكثر الميول الطبيعية والأخلاق الفاضلة فيضعفها أو يفسدها ؛ فهو يُفقد الإنسان عاطفة الحب ، فهو لا يحب قومه لأنهم عون الاستبداد عليه ؛ ولا يحب وطنه لأنه يشقى فيه ؛ وهو ضعيف الحب لأسرته لأنه ليس سعيداً فيها ؛ وهو لا يركن إلى صديقه لأنه قد يأتي عليه يوم يكون فيه عوناً على الاستبداد ومصدر شر له .

الإنسان في ظل الاستبداد لا ينعم بلذة الحرية والشمم والرجولة ، فلا يذوق إلا اللذة البهيمية لأنه لا يعرف غيرها .

والاستبداد يلعب بالأخلاق ، فيجعل من الفضائل رذائل ، ومن الرذائل فضائل : فيسمى النصح فضولاً ، والشهامة تجبراً ، والحمية طيشاً ، والإنسانية حمقاً ، والرحمة مرضاً ، كما يسمى النفاق سياسة ، والتحايل كياسة ، والدناءة لطفاً ، والنذالة دماثة وظرفاً .

والاستبداد أفسد عقول المؤرخين ، فسموا الجبابرة الفاتحين عظماء أجلاء ، مع أنه لم يصدر عنهم إلا الإسراف في القتل والتخريب ؛ ثم شادوا بذكر السلف تملقاً للخلف .

والاستبداد يفقد الثبات في الخلق ، فقد يكون الرجل شجاعاً كريماً فيصبح بعوامل الاستبداد جباناً بخيلاً ، ولا أخلاق ما لم تكن ثابتة مطردة !

وأقل ما يؤثر الاستبداد في أخلاق الناس أنه يرغم الأخيار منهم على ألفة الرياء والنفاق ، ويعين الأشرار على فجورهم آمنين حتى من الانتقاد والفضيحة ؛ لأن أكثر أعمالهم تظل مستورة لا يجرؤ الناس على قول الحق أمامهم خوف العقبى .

وأقوى ضابط للأخلاق النهي عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ وما إلى ذلك ؛ وهو في عهد الاستبداد غير مقدور لغير ذوي المَنَعة ، وقليل ما هم ، ويصبح الوعظ والإرشاد ملقاً ورياء .

في الحكومات التي نجت من الاستبداد أطلقت حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات ، ورأت أن الفوضى في ذلك خير من تحديد الحرية ؛ لأنه متى وضعت القيود نفذ منها الحكام ، وتوسعوا فيها حتى خلقوا منها سلسلة من حديد يخنقون بها الحرية .

والاستبداد يفقد الناس ثقة بعضهم ببعض ، ويُحل الخوف محل الثقة ، فيقل التعاون بين الأفراد ؛ والتعاون حياة الأمم .

والأنبياء سلكوا في تكوين الأخلاق مسلكاً خاصاً ، فبدءوا بفك العقول من تعظيم غير الله ، وذلك بتقوية الإيمان المفطور عليه الإنسان ؛ ثم جهدوا في تنوير العقول بمبادئ الحكمة ، وتعريف الإنسان كيف يملك إرادته وحريته في أفكاره ، وبذلك هدموا حصون الاستبداد . ثم أبانوا أنه مكلف بقانون الإنسانية واتباع المبادئ التي ترقيه وترقي جنسه — وكذلك فعل السياسيون الأقدمون من الحكماء .

أما المربيون المحدثون ، فوضعوا الأخلاق غير مرتكزة على الدين ، ولكن على ما أودع في فطرة الإنسان من ضمير وحب للنظام ؛ وساعدهم على ذلك انتشار العلم عندهم والرغبة في التقدم ، واستعانوا على ذلك بالوطنية .

ثم وازن بين أثر التربيتين فقال : إن الغربي مادي الحياة ، قوى النفس ، مضبوط العاطفة ، حريص على الاستئثار ، حريص على الانتقام ؛ والشرقي غير مادي ، يغلب عليه ضعف القلب وسلطان الحب والإصغاء للوجدان ، والرحمة ولو في غير موضعها — وقد نجح الغربيون المدنون في محاربة الاستبداد ، واستباحوا التدابير القاسية نحو الظلم والاعتساف ، فنالوا ما أرادوا من تحرير الأفكار وتهذيب الأخلاق وجعل الإنسان إنساناً . وما أحوج الشرقيين إلى حكماء لا يبالون بغوغاء العلماء الأغبياء والرؤساء القساة ، يجددون النظر في الدين فيعيدون إليه النواقص المعطلة ، ويهذبونه من الزوائد الباطلة ، فيملكون الإنسان إرادته وحريته وإنسانيته .

***

ثم الاستبداد والتربية — التربية تنمية الاستعداد جسماً ونفساً وعقلاً ، وهي قادرة أن تبلغ بالإنسان أعلى حد من الرقي لو صلحت .

والحكومات العادلة تعنى بتربية الأمة من وقت تكون الجنين ، بل قبله ، بسن قوانين الزواج الصالح ، ثم بالعناية بالقابلات والأطباء ، ثم بفتح بيوت اللقطاء ، ثم بإنشاء المكاتب والمدارس وتنظيم خططها متدرجة إلى أعلى مرتبة ، ثم تسهيل الاجتماعات ، والإشراف على المراسح ، ثم تشجيع النوادي وإنشاء المكتبات ، وإعلاء شأن النوابغ بإقامة النصب ونحوها ، ثم بتنمية المشاعر القوية بشتى أنواعها ، وتيسير الأعمال وغير ذلك .

أما الحياة في الحكومات المستبدة فمجرد نماء يشبه نماء الأشجار الطبيعية في الغابات والأحراش ، يسطو عليها الغرق والحرق ، وتحطمها العواصف ، والأيدي القواصف .

في الحكومة العادلة يعيش الإنسان حراً نشيطاً ، يسره النجاح ولا تقبضه الخيبة ؛ وفي الحكومة المستبدة يعيش خاملاً خامداً ، ضائع القصد حائراً .

الأسير المعذب يسلي نفسه بالسعادة الأخروية ، ويمد من فكره أن الدنيا عنوان الآخرة ، وقد جنى على المسلمين ظالموهم ، فأفهموهم أن الدنيا سجن المؤمن ، وأن المؤمن مصاب ، وإذا أحب الله عبداً ابتلاه ، وهكذا مما ابتدعوه ؛ ويتغافلون عن حديث : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً » ، وحديث معناه : « إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم غرسة فليغرسها » ! وكل هذه التثبيطات تحول الأذهان عن معرفة أسباب الشقاء ، إلى إلقائها على عاتق القضاء والقدر . وقد أحكموا هذه المكيدة باختراع الأحاديث التي تجعل الخضوع للحاكم ديناً ، كالسلطان ظل الله في أرضه ، والملوك ملهمون الخ .

وعلى الجملة فالتربية الصحيحة لا تمكن في ظل الاستبداد !!



***

ثم الاستبداد — على الإجمال — يمنع الرقي . والرقي الحيوي الذي يسعى إليه الإنسان هو — أولا — الرقي في الجسم صحة وتلذذاً ، ثم الرقي في الاجتماع بالعائلة والعشيرة ، ثم الرقي في القوة بالعلم والمال ، ثم الرقي في الملكات بالخصال والمفاخر . وهناك نوع آخر هو الرقي الروحي ، وهو الاعتقاد بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى ترقى إليها على سلم الرحمة والإحسان — والاستبداد بالأمة عدو ذلك كله ؛ بل هو يحول الميل الطبيعي فيها إلى طلب التسفل ، حتى لو دفعت إلى الرفعة لأبت وتألمت كما يتألم الأجهر من النور ! وعندئذ يكون الاستبداد كالعلق ، يمتص دم الأمة فلا ينفك عنها حتى تموت ويموت هو بموتها . والاستبداد يجعل الأمة منحطة في الإحساس ، منحطة في الإدراك ، منحطة في الأخلاق . وهو يضغط عليها فتكون كدود تحت صخرة ؛ والمشفقون عليها يجب أن

يسعوا في رفع الصخرة ولو حتًّا بالأظافر ذرة بعد ذرة !!

وهنا ضرب مثلاً يصح أن يخطب به الخطباء في الناس ليستيقظوا ؛ فوضع خطبة نموذجية لتنبيه الشاعر، وقال إن الرقي الذي ينشده في ظل العدل هو أن يكون الشخص أميناً على جسمه وحياته بحراسة الحكومة التي لا تغفل عن المحافظة عليه، أميناً على ملذاته الجسمية والفكرية باعتناء الحكومة بإيجاد أسبابها؛ أميناً على حريته فلا يُعتدى عليها، أميناً على نفوذه كأنه سلطان عزيز فلا ممانع في تنفيذ مقاصده النافعة، أميناً على ماله وشرفه، وما منحته الطبيعة من مزايا؛ فإن لم تتحقق هذه فالحكومة مستبدة ليست بيئة لترقي شعبها.

وأخيراً ما وسائل التخلص من الاستبداد؟ هو يرى أن الاستبداد لا يقاوَم بالقوة إنما يقاوم باللين وبالتدريج؛ ببث الشعور بالظلم، وهذا يكون بالتعليم والتحميس؛ ذلك لأن الاستبداد محفوف بأنواع القوات: كقوة الجند، وقوة المال، وقوة رجال الدين، وقوة الأغنياء؛ فإذا قوبل بالقوة كانت فتنة تحصد الناس! وإنما الواجب المقاومة بالحكمة في توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة. والاستبداد مع اعتماده على هذه القوات كلها يضعف أمام الوسائل الحكيمة في قلبه، كما قيل: كم من جبار عنيد جندله مظلوم صغير!!

ويجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ما يحل محله، ومعرفة الغاية معرفة دقيقة واضحة. ومتى وضحت الغاية المرسومة يجب السعي في إقناع الناس بها واستجلاب رضاهم عنها وحملهم على النداء بها، ويجب أن ينشر ذلك في كل الطبقات حتى يصبح عقيدة، فيتلهفون جميعاً على نيل الحرية وتحقيق المثل الذي ينشدونه؛ عندئذ لا يسع المستبد إلا الإجابة طوعاً أو كرهاً.

وقد حدّد في ثنايا كتابه، ماذا يقصد بالحكومة المستبدة، فقال: إنها تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق، كما تشمل حكومة الجمع ولو منتخباً إذا استبد؛ بل قد يكون هذا الحكم أضر من استبداد الفرد. ويدخل في أنواع الاستبداد أنواع الاستعمار، فالمستعمر تاجر لا يرى إلا مصلحته. ولا عبرة بأسماء أنواع الحكومات، إنما العبرة بحقيقتها، وكل أمة فيها لون من ألوان الاستبداد، ولكنها تختلف فيه كمية وكيفية، فبعضها يمسه الاستبداد مساً خفيفاً، وبعضها تغرق فيه من قدمها إلى مفرق رأسها. والغرب سبق إلى تقدير معنى الحرية والعدالة، ولكنه لا يأخذ بيد الشرق، بل يستغله لمصلحته. وواجب الغرب أن يرعى للشرق سابق فضله، فيأخذ بيده ليخرجه إلى أرض الحياة، ويعامله معاملة الأخ لأخيه لا السيد لعبده، ليتعاونا بعدُ على السير بالإنسانية.



وبعد فيتجلى في الكتاب، وهو فيه قوي مخلص، مملوء غيرة وأسفاً وتلهفاً على رفع نير الاستبداد عن الشرق، وهو إن استمد الفكرة من الغرب، فهو يبسطها ويمدّها ويعنى بتطبيقها. وقد يؤخذ عليه حصر نفسه في دائرة النظريات. وكان الكتاب يكون أوقع في النفس لو ملأه بالشواهد وما رأى وسمع من أحداث، وهو معروف بسعة الاطلاع؛ فلو قرن النظريات بالشواهد لكان كتابه أكثر فائدة وأعم نفعاً، ولكن يظهر أن قد منعه من ذلك أنه أراد أن يستتر فأخفى اسمه ولم يضعه على الكتاب. وقال في مقدمة الكتاب إنه لم يقصد ظالماً بعينه ولا حكومة مخصوصة، وهو لو أتى بالشواهد لدل على الحكومة التي يقصدها. وما كان في ذلك من ضرر، بل كان فيه كل النفع. ولكن الأمور تقدر بأوقاتها وظروفها، وهو فيما اكتنفه من ظروف كان في عرضه النظريات فقط شجاعاً جريئاً.

(يتبع) أحمد أمين

# بعير يقود قافلة

قرأت للأستاذ أحمد أمين بك مقالا مفيدا في الثقافة، عالج فيه موضوع الوحي والإلهام. وقد ورد في هذا المقال ذكر للحواس المجهولة التي يتمتع بها بعض أنواع الحيوان والطير، والتي بواسطتها يمكنها أن تهتدي إلى مواطنها، ولو كانت بعيدة عنها بآلاف الأميال. وقد ذكرني هذا بحادث وقع لنا في إحدى رحلاتنا في الصحراء الغربية، يوم أن ضللنا الطريق وكنا على وشك الهلاك، لولا أن قيض الله لنا بعيرا ملهما قاد قافلتنا في أحرج الأزمات إلى السلامة. ذلك أنه في ربيع سنة ١٩٢٥ رافقت قافلة من الجمال كانت متجهة إلى الواحات البحرية في الصحراء الغربية، وكانت القافلة مكونة من اثني عشر جملا، محملة ببضائع لبعض تجار الواحة. وكان قائدها ودليلها الحاج مصطفى من عرب الفيوم. فحصل بعد أن توغلنا في الصحراء مسيرة يومين أن أصيب الحاج مصطفى بمرض شديد أعجزه عن متابعة السير، فترك قيادة القافلة لوكيله، وركب هو أحد الجمال في المؤخرة. وكان الشيخ نوفل وكيل الحاج مصطفى المذكور شريكا له كذلك في جمال القافلة، وكان رجلا طاعنا في السن ضعيف النظر.

وكان من عادة القافلة أن تسير بالليل إلى ما يقرب من منتصفه، ثم تستريح حتى بزوغ الشمس في اليوم التالي، ثم تستأنف السير حتى الظهر، ثم تستريح حتى العصر، ثم تبدأ السير وهكذا.

وقد حدث في تلك الليلة أن اختلط الأمر على الدليل، فحاد عن الدرب، ودخل بالقافلة في منطقة واسعة غير مطروقة من غرود الرمال؛ ولم ينتبه أحد من قادة الجمال الآخرين لهذا الخطأ، لظلام الليل، وتشابه المسالك، وحداثة عهدهم بالصحراء، فأوغلت القافلة بين الغرود في تيه عظيم لا آخر له كالمحيط. وبقينا نضرب في هذا التيه على غير هدى حتى قبيل ظهر اليوم التالي حينما اعترض سيرنا واد عميق، فتقدم الشيخ نوفل ليستطلع الوادي، وهنا كانت وقفة لا أنساها ما حييت — فقد شاهدت الرجل يقف على حافة الوادي، ثم يتطلع إليه مليا، ثم ينقلب إلينا مهرولا مذعورا كالمجنون، وهو يصيح بصوت أجش كالمخنوق: لقد ضللنا الطريق يا حاج مصطفى!! كانت صيحة منكرة، ومعناها في الصحراء الهلاك على أبشع صورة. فكان وقعها في نفوسنا شديدا كأنما تفككت لها أوصالنا، وهلعت لها نفوسنا.

واستيقظ الحاج مصطفى — وكان لا يزال محمولا على الجمل — على صياح الشيخ نوفل وضجيجنا، فقفز من ظهر البعير كالمخبول، وجسمه يرتجف من شدة الحمى، واندفع نحو الوادي يجر جسمه جرا، وقد بدا عليه الضعف وشدة الهزال.

وعلى حافة الوادي نظر هو الآخر إلى الوادي نظرة فاحصة، ثم ارتمى على الأرض وأخذ يندب سوء المصير، متوعدا وكيله بأشد أنواع العقاب — وأصاب القوم مس من الجنون فهاجوا وماجوا، وأخذوا يسبون بعضهم بعضا، ويكيلون للشيخ نوفل اللعنات، ثم اشتبكوا في مشاحنات وعراك. واستمروا هكذا نحو ساعة حتى استنزفت أعصابهم الهائجة حدتها وهدأت، فسكن القوم وسكتوا، واستسلموا للقدر؛ وفاق الحاج مصطفى من الصدمة وعاد إليه رشده، وتذكر واجباته نحو القافلة كقائد لها ودليل، فتجلد وتقوى، ودعانا حوله واعتذر إلينا عما حصل، وطمأننا على السلامة؛ وقال إنه رأى بالليل وهو نائم سيدنا الخضر عليه السلام وقد أقبل على القافلة من جهة الغرب ثم استلم زمامها وقادها حتى أوصلها إلى الواحة بسلام. ثم صاح فينا: أبشروا ولا تحزنوا! الله معنا! ثم وقف منفعلا وقد تقلصت

عضلات جسمه ، وتجهم وجهه ، وجحدت عيناه ، وشاح بوجهه نحو السماء كأن يستلهم المعونة وسداد الرأى والهداية .

وبعد أن مكث على هذه الحال نحو دقيقة ، لا يتكلم ولا يبدى حراكا ، كأنه فى غيبوبة ، عاد إلى حالته الطبيعية وقد زال عنه الاضطراب والقلق ؛ ثم قال إنه قد أصبح منهوك القوى ضعيفاً ، ورأسه تدور لا تقوى على تعيين الاتجاهات ، ولهذا فقد عول على تسليم قيادنا لبعيره الخاص . وقال وهو يقدمه لنا إنه بعير أصيل ، ولد فى هذه الصحراء ونشأ فيها ، وإنه جرّبه فى أسفاره السابقة إلى الكفرة والجغبوب فكان بعيرا موهوبا يمكنه أن يهتدى من تلقاء نفسه إلى عيون الماء ، حتى ولو كانت على مسيرة خمسة أيام . فتقبل الجماعة قراره بالإذعان والتسليم ، ثم عاونوه فى ركوب البعير فاستلق على ظهره كما كان ، بعد أن أرخى للبعير الزمام . وشخصنا بأبصارنا إلى دليلنا الجديد وأملنا الوحيد الباقى فى النجاة ، نتتبع حركاته وسكناته بشغف وانتباه ونظرت إلى البعير فرأيته مرفوع الرأس ، شامخ الأنف ، يجول بعينيه فى جميع الآفاق وقد بدا عليه الجد والاعتداد بالنفس .

ولما صدر الأمر بالسير على بركة الله ، تقدمنا وحده حراً طليقاً ، فسار الهوينا على حافة الوادى نحو ساعة ، ثم وقف ووقفنا . ورفع رأسه إلى أعلى ، وأخذ يشم الهواء بشهيق عميق ، ثم تحول نحو الشمال الغربى وأوغل بين كثبان الرمال ، وبعد نحو ساعتين وقف مثل وقفته الأولى ، وأخذ يشم الهواء ، ثم اتجه نحو الشمال وأخذ يهرول والجمال الأخرى فى أثره تتبعه كظله ، لا تحيد عن أثره كأنها عالة بحرج الموقف .

وتابعنا السير فى هذا اليوم من غير توقف ونحن فى غم وهم ، لا ندرى ما خبأه لنا القدر ، مستسلمين لحيوان أعجم يقودنا منذ الصباح حيث شاء ، من سهل إلى نجد ، ومن نجد إلى سهل ، فى فيافى صحراء جرداء ، شاسعة واسعة لا نبات فيها ولا ماء .

وقبيل العصر خرجنا من منطقة الغرود ؛ وبعد ساعة اتجهنا نحو الغرب ، وأخذنا نرتقى هضبة عالية (قارة) . وعند الغروب وقرص الشمس يحتجب وراء الأفق البعيد ؛ فى تلك الساعة ، وقد أدبر النور وأقبل الظلام ، كنا نجاهد للحياة جهاد اليائس البائس ، ونتبع البعير خطوة خطوة من غير أن يكون لنا إرادة أو عقل أو تفكير — فى تلك الساعة كنا قد بلغنا القمة وانكشف السهل من تحتنا ، فأبصرنا أمامنا شريطاً طويلا أبيض ، يمتد عرض الصحراء من الشرق إلى الغرب . ولم تكد الجماعة تتبينه حتى هاجوا وصاحوا وهللوا وكبروا ، وفاض بهم الفرح فبكوا للنجاة والخلاص . إنه كان الدرب الذى أضاعه الدليل بالأمس !! وتدافعوا مقبلين على البعير يقبلونه ويتبركون به ، وعلى الحاج مصطفى يقبلون يديه ورأسه . وأدرك البعير أنه قد أنجز مهمته فبرك على الأرض ليستريح .

اليوزباشي محمد

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٤٥ فى مصر والسودان
٣٧,٥ للطلبة ومعلمى الإلزام
٦٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العــدد ١٥ مليما

# تمثال الرخام والراحلة

[ هينريش هينه Heinrich Heine كاتب هذه القصة شاعر يقف على قمة الشعر الألماني الحديث ، ولئن عاصر جيته Goethe ؛ ونازع ملك ناصية الأدبية ، فأسلمت له القياد ، وبوأته الصدارة في عصره . اتسم أسلوبه بالفكاهة والرشاقة والسخر ؛ يحركه الحب النضر والحماسة المتقدة ، وتحركه السخر السام والتهكم اللاذع من أعمق الأعماق . تخالط مشاعره الصبيبة أحياناً نغمة دينية . أحب ألمانيا وطنه وأبغضها معاً ، وعاش على معاش من الحكومة الفرنسية . فهو في نظر البعض موضع إعجاب يرفعه إلى عليين ، وفي نظر البعض الآخر وصمة في جبين . ولد سنة ١٧٩٩ في دسلدورف من أسرة يهودية ، وتنصر بعد ذلك ومات سنة ١٨٥٦ ] .

في هذه اللحظة استيقظت المريضة ، فتطلعت إلى الصديق عيناها الحنونان ، الزرقاوان ، وكأنهما زهرتان من أعماق حلم تسألان وترجوان . . . قالت بذلك الصوت الناعم الذي تسمعه الصدور غير مشاهد : فيم كنت تفكر الآن يا مكسمليان ؟ وهو صوت تسمع فيه نغمة الطفل ، وتغريدة الطير ؛ وتسمع فيه مع ذلك حشرجة الموت في صدر المحتضر : فيم كنت تفكر الآن يا مكسمليان ؟ وهبت من ضجعتها وقد عاودت السؤال ، فتلوت خصلتها الطويلة حول رأسها كأفاع من عسجد مسها الروع .

فصاح مكسمليان : « ربك ! » ، وردها على الأريكة في رفق ، ابقى مضطجعة حيث أنت ، وأمسكي عن الكلام ! سأقول لك كل شيء ، كل شيء أفكر فيه وأشعر به ، بل سأقول لك ما لست أعرفه .

ثم استطرد يقول : وفي الحق أني لا أدرك تماماً ما أفكر فيه وما أشعر به . صور من طفولتي تمر بخاطري غائمة مبهمة : فهناك قصر أبي وحديقته المهجورة ، وهناك تمثال الرخام الجميل الملقى فوق العشب . وقد قلت « قصر أبي » ، فلا تصوري بالله شيئاً مما تخفق به الروعة ؛ فقد اعتدت هذه التسمية ! وقد كان أبي يؤكد كلمة « القصر » توكيداً خاصاً ، ويبتسم لهذا التوكيد ابتساماً غريباً . فلما تقدمت بي الأيام أدركت معنى هذا الابتسام ، وكنت إذ ذاك غلاماً في الثانية عشرة أسافر وأبي إلى القصر . وكان سفري هذا هو الأول ؛ لبثنا فيه طول النهار نقطع الغابة الكثيفة ، وترتسم في ذاكرتي ملامحها القاتمة . وعند المساء وقفنا بمعارضة أفقية تعترض الطريق إلى مرعى فسيح ، فمكثنا نصف ساعة ننتظر قبل أن يأتينا الولد من الكوخ القريب ويرفع الحاجز وندخلنا . وأقول « الولد » لأنه هكذا تناديه العجوز مارتا ابن أخيها البالغ من العمر الأربعين . وقد تركنا ننتظر هذا الوقت الطويل لأنه لم يشأ أن يستقبل سادته إلا بما يليق ، فذهب يرتدي بذلة التابع التي تخلله العتيق ؛ وإذ كان يعلوها الغبار فقد جعل ينفض عنها غبارها قبل أن يرتديها . ولولا أننا لم نمهله ليلبس جوربيه كذلك ، ولهكذا ظلت ساقاه العاريتان المديدتان الحمراوان ؛ وليس بينهما وبين سترته القرمزية القانية من ثياب يذكر ، حتى إني لم أدر آنئذ هل كان يرتدي تحت سترته سراويل ؟! ولما قادنا « الولد » إلى بناء صغير متهدم ، استغرب خادمنا يوحنا أن يكون هذا هو القصر الذي كان يسكنه والدي المرحوم ، وقد طالما سمع ممنا عنه . وإذ أمره أبي أن يذهب فيأتي بفُرُش النوم يسقط في يده ؛ فكيف يتصور أن ليس في القصر فُرُش للنوم ، وهو إما أنه لم يسمع بتاتاً ما أمرته به أبي عند السفر من أن يحضر معه فرشاً ، وإما أنه وجد أن لا ضرورة للتعب فلم يصدع بالأمر .

وكان البيت الصغير المؤلف من طبقة واحدة يحتوي أيام عزه الغابر على خمس غرف صالحة للسكنى ؛ أما اليوم فهو صورة حزينة من صور الماضي : أثاث محطم ، وطنافس مهلهلة ، وألواح من الزجاج لم يسلم واحد منها من العطب ، وأرض المكان منزوعة هنا وهاهنا ، وفي كل مكان آثار سيئة لما كان من بني الجند وعدوانهم . وقال « الولد » وعلى

وجهه ابتسام الفنا . ! لقد كان نزول الجند عندنا مسليا جداً . لكنه لما أشارت أمي بأن ندعها وحدها ، خرج الولد مع يوحنا لأعمالهما وذهبت أنا إلى الحديقة أعابثها ، فإذا هي أيضاً صورة لخراب عديم العزاء . فالأشجار الكبرى إما مقطعة الأوصال ، وإما مُطَّاحة يعلو جذوعها النقاة نبات طاغ ، وكأنه يستخرمها . وقد نمت الأدغال هنا وهاهنا فوق ما كان من مسالك ؛ وهنا وهاهنا تماثيل قائمة طاحت رؤوس معظمها ، أو جدعت أنوفها على الأقل ؛ ومن بينها تمثال لديانا فقطع الطلاب المتسلق نصفها الأسفل في أخزى صورة ، وتمثال آخر لإلهة الوفرة والخصوبة تدأزهر على قرنه تجيل كربه الرائعة ؛ إلا تمثالا لا أعلم كيف سلم من يد الإنسان والزمان ، قد ألقى عن قاعدته على العشب فظل ملقى هناك لم يمسسه سوء ؛ تمثال إلهة من الرخام ذات قسمات صافية بديعة ، وصدر نبيل بارز الثديين ، يتجلى من بين العشب النامي كما تتجلى رؤى الأحلام ، وقد كنت أرتاح حين رأيته ، إذ سرت إلى منه حمية غريبة ، وأقصتني من منظره الطريف غباوة خفية .

كانت أمي حين عدت إليها واقفة بالنافذة ، غارقة في الفكر ، يعتمد رأسها على ذراعها اليمنى ، وتجرى دموعها من دون انقطاع على خديها ؛ ولم أكن رأيتها تبكي هكذا من قبل . فضمتني إلى صدرها في حنان ولهفة ، ورجتني الصفح أن حرمني إهمال يوحنا من فراش أنام عليه . قالت : « ومارتا العجوز تشتد عليها وطأة المرض ، فلا تستطيع يا بني أن تنزل لك عن فراشها . على أن يوحنا سيحضر لك وسائد المركبة يمدها لمضجعك ، وسيجعل معطفه غطاء لك . أما أنا فسأنام هنا على القش ، فهذه حجرة أبي المرحوم ، وكانت قبلا ذات رواء . والآن دعني وحدي » . وتفجر من عينيها الدمع أغزر من ذي قبل .

فهل كان المضجع الذي لم آلف ، أم الفؤاد الذي هاجه الشجن ، هو ما أطار عن جفني النوم ؟ كانت أشعة القمر تنفذ رأساً من الألواح الزجاجية المحطمة ، وكأنها تستهويني إلى الخروج إلى ليل الصيف الزاهي . وقد تقلبت فوق فراشي على الجنبين ، وقد أغمضت عيني ، ثم عدت أفتحهما تبرما ، فما كانت لتفارقني صورة التمثال الرخامي الجميل ، أو ينقطع تفكيري فيه ، ولم أستطع تفسير الشاوة التي تملكتني لمرآه ! وقد غالني هذا الشعور السخيف ، وقلت أخاطب نفسي في خفوت : غدا نقبلك أيها الوجه الرخامي الجميل ، وتقبلك من ذلك الفم الذي تضامت شفتاه عن ثغر في أظرف تكوين ! وتولاني قلق لم أحس مثله قط ، سرى في جميع أعصابي فلم أعد أقوى على مغالبة الدافع الغريب الذي كان يدفعني . فوثبت أخيراً من فراشي ، والشجاعة الجريئة تتملكني ، وقلت : سأقبلك الليلة أيها التمثال العزيز فليس هذا بضائري . وتركت البيت خفيفا حتى لا تسمع أمي خطاي ؛ وسهل على تلمسي السبيل إليه ، وإن زود بلوحة كبيرة تحمل شارة الأسرة ، كان خلوا من الأبواب . وجعلت أتحسس طريقي متعجلا بين عرائش النبات في الحديقة المهجورة ، والسكون شامل ، والرهبة سارية ، وضوء القمر الساجي يغمر المكان . وقد كانت ظلال الأشجار كأنها مسمرة فوق الأرض ؛ كذلك كانت الإلهة الحسناء مستلقية فوق العشب الأخضر بلا حراك . لكن الذي قيد حركتها لم يكن ، فيما بدالي ، موات الحجر بل سكون السكرى ، فلما اقتربت منها خشيت حقاً أن يوقظها أخفت صوت فترفع جفنها ، لحبست أنفاسي حين انحنيت عليها أعلى قسمات وجهها الجميل ؛ ثم صدفت عنها وجل سرى في شراييني ؛ لكني عدت تردني إليها شهوة طفلية خفق لها فؤادي ، كما لو كنت مقدما على جريمة قتل ! وأخيراً قبلت الإلهة الحسناء ، بحرقة وحنو ويأس ، كما لم أقبل في حياتي . وإني أنسى لا أنسى هذا الإحساس المرعب الحلو

الذي استولى عليّ حين مست في برودة الشفتين الرخاميتين تشعرني الهناء .

وسافرنا في اليوم التالي ، ولم أر التمثال الظريف بعد ذلك . لكنه لبث سنوات أربعاً يشغل قلبي ، وبات يفعم نفسي في ذلك اليوم شغف بالتماثيل الرخامية عجيب . فأنا إلى هذا الصباح أشعر بجاذبيتها القوية ، فقد جئت من لورتويا ، مكتبة آل مدسيس ؛ ووقفت ، ولا أدري كيف وقفت ، على المصلى الذي اتخذت لها فيه هذه الأسرة الإيطالية المجيدة مضجعاً من الحجارة الكريمة نامت عليه ملء الجفون ! هناك في هذا المصلى لبثت ساعة كاملة أطيل التأمل في تمثال رخامي لامرأة ، يشهد تكوينه الجثماني القوي بقدرة ميكائيل أنجلو وجرأته ، بينا شخص التمثال ترف حوله حلاوة أثيرية ليس من عادة المرء أن يطلبها عند هذا المعلم . هذا الرخام قد احتبس دولة الأحلام بكل ما فيها من غبطة ساكنة ، وفي هذه الأعضاء البديعة سكن هدوء حنون ، وبدا ضوء القمر اللطيف وكأنه يسري في العروق ... إنها الليلة لميكائيل أنجلو بوناروتي . ألا ليتني أستطيع أن أنام نومتي الأبدية بين ذراعي هذه الليلة ...!!

***

واستطرد مكسمليان بعد هنيهة يقول : لقد كانت رسوم النساء دائماً أقل تأثيراً في نفسي من التماثيل . لكني شغفت مرة بلوحة حباً ، وكانت لعذراء بارعة الجمال عرفتها في كنيسة بمدينة كولونيا على نهر الرين . كنت إذ ذاك من رواد الكنائس المواظبين ، وكانت نفسي مدلهة بروحانيات الكثلكة ، قمينة بأن تجاهد كفارس من الأسبان ، طيلة الزمان ، في سبيل مريم ملكة الملائكة ، وأجمل سيدة في السماء والأرض ، وأن تجعل من جهادها مسألة حياة أو موت ! كنت أهيم إذ ذاك بالعائلة المقدسة جمعاء ، وكنت أرفع قبعتي هاشاً كلما مررت بصورة للقديس يوسف . بيد أن هذه الحال لم تدم طويلا ، فقد انصرفت فجأة و « من دون انذار » من « الأم » حين تعرفت في متحف للفن القديم بحورية يونانية قيدتني بأصفادها الرخامية زمناً طويلا .

وتضاحكت ماري قائلة : وحبك ألِلنساء المنحوتات أم المرسومات ؟

قال مكسمليان : لقد أحببت منهن أيضاً من مات ! وانتشر على وجهه شجن عظيم ، ولم يلحظ أن ماري ارتاعت لهذه الكلمات ، فمضى يقول في هدوء :

من أغرب ما كان أني أحببت فتاة بعد أن ماتت بسبع سنوات ؛ فحينما تعرفت بفيري الصغيرة راقتني كثيراً ، ووقعت من نفسي موقعاً حسناً . ظللت ثلاثة أيام مشغولا بها أحس الهناء كاملا في كل ما تفعل وما تقول ، وفي كل تعبير لكيانها الفاتن العجيب ؛ وأنا في كل هذا لا أشتط في النفس ولا أسرف في الحنان . وكذلك حين علمت بعد عدة أشهر أنها توفيت فجأة من حمى في الأعصاب ، لم يروعني الخبر ترويعاً شديداً ، ولم يهزني من الأعماق ؛ وقد نسيتها نسياناً تاماً ، وأنا مقتنع بأني لم أفكر فيها مرة لمدة سنين !! حتى إذا مضت سبع سنوات كاملة على الوفاة ، وكنت يوماً في بوتسدام أنعم بالصيف الجميل في وحدة مسترسلة دون إزعاج ، لا أختلط بأحد ، ولا يعدو تطوافي التماثيل الموجودة في حديقة سان سوسي Sansouci ، حدث أن تذكرت ملامح وجه ، وأسلوباً في الحديث والحركة متناهياً في اللطف ، دون أن أتذكر لمن هذه الملامح وهذا الأسلوب . وليس يعذب كالتنقيب في الذكريات القديمة عن شيء مفقود ، ومن ثم شد ما سرني أن فوجئت بتذكر فيري الصغيرة ، وأن تبينت أن ما كان يقلقني ويداعب ذاكرتي ، إنما هو وجهها الحبيب المنسي . وقد اغتبطت بهذا الاكتشاف شأن من يلقى صديقاً حميماً على حين غفلة بعد طول الغياب .

# التطور والطفرة

رغم مايقام من اعتراض في مدى وراثة الصفات البيئية، فإنه لايمكن أن نجهل أثر البيئة في إحداث تغيرات لابد أن تورث، وإلا هدمت نظرية التطور واستحال التفكير فيها؛ لذا كان من الضروري أن يكون للبيئة أثر يورث. واستمرار حدوث هذه التغيرات يحدث تغيراً ينقل بواسطة الخلايا الجنسية، ولذا لابد من تأثير الخلايا الجنسية، وهذه كيفية بنقل هذا التغير.

وهذا مايحدث في الطبيعة؛ فقد يوضع الكائن تحت ظروف معينة، وتؤثر هذه الظروف في الكائن ويستمر أثرها إلى أن يؤثر ذلك في تكوين الجاميطات التي لاتلبث أن تصبح واسطة لنقل هذا التغير، فيظهر فجأة نتاج يحمل صفات جديدة، يرثها الخلف من السلف جيلاً بعد جيل مدة قرون، دون أن تعاني تغيراً مهما غيرت من بيئتها وهذه مايعبر عنه بالطفرات.

وفي عام ١٧٩١ فوجئ أحد مربي الأغنام بظهور حمل غريب، له جسم طويل وأرجل قصيرة؛ ولم يظهر مثل هذا الحمل من قبل. وكان هذا التاجر في حيرة من أمره، إذا تعودت أغنامه أن تقفز الحواجز إلى حقول جيرانه. أما النوع الجديد ذو الأرجل القصيرة فلم يتمكن من ذلك. وقد كان هذا الفرد ذكراً، فتركه مع نعاجه بعد أن تخلص من الكباش الأخرى. وسمي النوع الجديد « Ancon ». وقد وجد أن اجتماع هذا الكبش الأنكوني بنعاج عادية ينتج أغناماً من نوعين، أنكوني وعادي. وبانتقائه النوع الأنكوني تمكن بعد بضع سنوات من إحداث قطيع كبير وفر عليه متاعبه التي عاناها من جراء اقتحامها للحواجز. وقد انتشر هذا النوع في جميع مقاطعة ماساشوزيت بأمريكا.

---

جعلت الألوان الباهتة تزهو شيئاً فشيئاً، وأخيراً غطت الإنسانة الصغيرة الحلوة لناظري لحماً ودماً، تبتسم وتعبس، وتتندر، وتبدو أجمل من ذي قبل. من ذلك الحين لازمتني هذه الصورة الظريفة ولم تتركني، ملأت حنايا النفس، بحيث كنت ووقفت وقفت، وكانت إلى جانبي تتحدث إليّ وتضحك مني في غير ما ضير، ومن دون غلو في الحنو. أما أنا فازددت مع الأيام افتتاناً بالصورة، وازدادت الصورة كل يوم تحققاً في ناظري.

ومن السهل أن تستحضر الأرواح، لكنه من الصعب أن تردها إلى عدمها البهيم؛ فإنها لتنظر إلينا عندئذ متوسلة فتكون قلوبنا لها أقوى شفيع... وقد تعذر عليّ التخلص من فيرى فأحببتها بعد موتها بسبع سنين. وقضيت في بوتسدام ستة أشهر غارقاً في هذا الحب. وعظمت عنايتي بتجنب الناس من ذي قبل، فإذا مر أحد في الطريق قريباً مني، أحسست أشد الضيق؛ وبات يحدوني من كل لقاء مثل الهيبة التي تحدو أرواح الموتى الهائمة بالليل؛ فإنهم يقولون إن هذه الأرواح إذا لاقت حياً نفرت منه كما ينفر الحي من الشبح. واتفق أن جاء بوتسدام سائح لم يكن مناص من ملاقاته لأنه شقيق. لحين رأيته وسمعت منه ما وقع من حوادث الأيام الفائتة تنبهت كما ينتبه النائم من حلم طاغ، وشعرت فجأة، وأنا مذعور، بمبلغ الوحدة التي كانت تطويني؛ فقد مرت بي فصول السنة فلم ألحظ تغيرها، ولم أفطن إلى الشجر الذي تساقط ورقه من أمد، وأكنني بتضخج الخريف، فرعيته عندئذ متعجباً. وبارحت بوتسدام على الأثر، وودعت فيها فيرى الصغيرة. وفي مدينة أخرى كانت تنتظرني فيها أعمال هامة، انخرطت بظروفي وصلاتي الوثيقة في سلك الحقيقة الجافة.

محمود الدسوقي

ومن الأبحاث التي أوعزت بوجود الطفرات ما أجرى على حيوان قشرى يعيش في الماء العذب ، ويسمى براغيث الماء Daphnia ، فهذه البراغيث أعطت ما يقرب من (٣٩٣) جيلا يعيش في درجة ٢٠° م ، وتموت إذا ارتفعت الحرارة إلى درجة ٢٦° م أو انخفضت تحت ١١° م . وبعد مضى ١٤ عاما على تربية هذه الحيوانات ظهرت سلالة جديدة ( طفرة ) تتحمل درجات حرارة تخالف السابقة . فصغارها تموت إن بقيت في درجة ٢٠° م ، وتعيش بحالة جيدة إن عاشت في درجة ٢٧° م ، وتموت بعد درجة ٣٠° م . ويتفق هذا النوع مع سابقه في شكله وتركيب أجزائه ، ولا يختلف عنه إلا في تحمل درجة حرارة أعلى . وظهور مثل هذا النوع الجديد يساعد الحيوان على المعيشة في بيئة جوها أكثر دفئاً .

وفي الولايات المتحدة ظهر نوع من التبغ لا يزهر في المناطق الشمالية ، بينما كان النوع الأصلي يزهر في هذه المناطق . وتبين أن هذا النوع الجديد يزهر إذا أعطى إضاءة اصطناعية تتناسب وطول النهار في أشهر الصيف بالبلاد الحارة . وقد ظهر هذا النوع فجأة ، وأعطى سلالات ثابتة تتصف بهذه الصفة الجديدة وأصبحت تتحمل جواً جديدا .

هذه الأمثلة المختلفة تسمى طفرات ، إذ أننا حصلنا على نوع جديد توالد وأنتج أفراداً تشبه الآباء ، ولكنها تختلف عن الأجداد . وقد علل ظهورها بحدوث تغير في تركيب أجزاء النواة في الخلية الجنسية .

وقد اهتم علماء الحياة بهذه الطفرات ، وبحثوا في كيفية حدوثها وحاولوا أن يحدثوها صناعياً . ومن أهم الأبحاث في هذه الناحية ما أجرى على ذبابة الفاكهة ، التي تبين أن تركيب النواة في خلاياها الجنسية قابل للتغير المستمر الذي يعطى طفرات باستمرار . وقد حول تهجين الطفرات مع بعضها فأنتجت أفراداً تختلف تماماً عن الحشرات العادية ؛ ولولا معرفة نشأتها من هذا التهجين لما عرفت علاقتها بذبابة الفاكهة .

وقام العلامة « Muller » بتجارب كثيرة على ذبابة الفاكهة ، وتتلخص أهم تجاربه في تعريض هذه الحشرات لأشعة X . ولم يظهر أثر الأشعة في هذا الجيل ، بل ظهر في صغارها ، إذ نتجت أفراد تخالف آباءها من حيث لون العين وحجم الأجنحة .

وقد لوحظ أن هذه التغيرات ثابتة ، إذ أن هذه الأنواع الجديدة عندما تكاثرت أعطت أفراداً تحمل صفات هذا الجيل الذي ظهرت عليه التغيرات الجديدة ؛ ومعنى ذلك أن أشعة X أو الأشعة السينية أعطت طفرات . وقد توبعت هذه الدراسات وجرب التهجين بين هذه الطفرات ، فوجد أن بعضها يتبع قانون مندل ، كما وجد أن بعض هذه الصفات يكون سائداً يظهر على غيره ، بينما يكون الآخر متنحياً لا يظهر . وقد وجد أيضاً أن الطفرات التي ظهرت كان بعضها معروفاً من قبل والبعض الآخر كان حديثاً ؛ وهذا معناه أن استخدام هذه الأشعة قد عجل بظهور الطفرات . وعلل هذا الظهور بأن الأشعة السينية موجودة في الطبيعة ولكن بمقدار بسيط ، ولذا لا تظهر الطفرات في الطبيعة بسرعة التجربة . ولا تنفرد الأشعة السينية بإحداث الطفرات ، إذ وجد أن لبعض المواد الكيماوية أثر كبير في إحداث الطفرات . وأثبت ذلك العالم البيولوجي Harison ، فقد لاحظ قلة نوع معين من الفراش الأسود في بعض المناطق بإنجلترا ، وكان هذا النوع معروفاً بكثرته منذ سنين مضت . ثم حدث بعد ذلك أن كثر هذا الفراش إلى حد كبير ، ووجد أن كثرته تتناسب وعدد المصانع ، فكلما زادت هذه الأخيرة زاد الفراش ؛ أما في الريف فإن هذا الفراش يكون نادراً . ولوحظ أيضاً في المناطق

الصناعية تغلب أنواع الفراش الأسود وقلة الأنواع البيضاء .

وقد أخذ Harrison فى بحث المناطق الصناعية من حيث نباتاتها التى تتغذى عليها هذه الحشرات ، فوجد أن أوراق النباتات يكون عليها طبقة سوداء ، بها أملاح معدنية سامة ترسبت عليها مما تلفظه مداخن المصانع ، فخطر لها رىسن «Harrison» أن تكون هناك علاقة بين هذه المواد وحدوث الطفرات . فغذى الحشرات بغذائها الطبيعى مضافاً إليه مقادير بسيطة جداً من أملاح المعادن الثقيلة ؛ وقد تحقق ما خطر له ، فظهرت طفرات ذات أجنحة سوداء ، وهذه تعطى أفراداً ذات أجنحة سوداء رغم تغذيتها بغذاء عادى لا يحتوى على أى مقدار من الأملاح . ولذا يكون للمواد الكيماوية أثر كبير فى إحداث تغير فى تركيب محتويات النواة فى الخلية الجنسية .

ومعنى ذلك أن عوامل البيئة سواء كانت طبيعية أو كيماوية تؤثر على الكائنات فتحدث فيها تغيرات ، وهذه التغيرات تقوى شيئاً فشيئاً ، حتى إذا ما أثرت فى الخلايا الجنسية أمكن نقل هذا الأثر من جيل إلى جيل ، ويظهر هذا على شكل طفرات . ويلاحظ أن هذه الطفرات لا تكون موجهة نحو غرض خاص لملاءمة ظروف معينة ، بل قد لا توافق البيئة التى تظهر فيها ويكون مصيرها الانقراض ، وقد تلائم البيئة فتبقى وتتكاثر ويكتب لها البقاء .

فالنباتات التى تنمو بالقرب من شواطئ البحار تكون أوراقها لحمية ، وهذه صفة وراثية لا تتغير مهما غيرنا من بيئتها . فكيف نشأت هذه النباتات ؟ من المعروف أننا لو أخذنا نباتاً كالجاروتيا وروى بماء مالح نوعاً ، تكونت له أوراق لحمية ، وإذا روى بماء عذب فقد هذه الخاصية ؛ وعلى هذا فقد كانت نباتات الشواطئ نباتات عادية فى بدايتها ، ثم تلحمت أوراقها جيلاً بعد جيل ، حتى ظهرت طفرة بعد ذلك تحمل صفة ثابتة لا تتغير مهما تغيرت ظروفها ، فساعدها ذلك على أن تصارع الحياة وكتب لها البقاء . أما مادون ذلك فقد انقرض واختفى .

وبالمثل يمكن تفسير سواد اللون فى أهالى المناطق الاستوائية ، فاللون القاتم ضرورى لحماية الأنسجة الداخلية للجسم من أشعة الشمس فوق البنفسجية . ويلاحظ دائماً أن الأشخاص ذوى الجلد الأبيض تكتسب سمرة عند ذهابهم للشواطئ وتعرضهم لأشعة الشمس . وهذا اللون القاتم ضرورى لحماية الأنسجة طالما وجد الإنسان فى هذه البيئة ؛ أما إذا انتقل إلى بيئة أخرى أقل أشعة فسرعان ما يعود لون جلده إلى طبيعته . أما الزنوج فلونهم ثابت لا يتغير ، وهؤلاء الزنوج طفرات ظهرت من قديم الزمان وعاشت وقاومت وهج الشمس فكتب لها البقاء .

على هذا نجد أن الكائنات تتأثر بعوامل البيئة حتى يمكنها أن تقاومها . ويستمر هذا التغير موجهاً بهذه العوامل حتى تصل إلى حد تتأثر فيه الخلايا الجنسية ، عند ذلك يصبح هذا التغير قابلا للوراثة بقيت عوامل البيئة أم تغيرت ؛ وهذه مايعبر عنها بالطفرات . وهذه الطفرات إن هى إلا أنواع جديدة تظهر من وقت لآخر دون ضابط أو توقيت ، وتظهر بدون نظام ولا قصد ؛ وقد ينقرض بعضها وقد يبقى الآخر ، ولكن لابد من ظهورها ، ولا بد من بقاء بعضها حتى يضمن البقاء للأحياء ، وحتى يستمر التطور . وما أشبه الطفرات بالعقرب فى الساعة ، فباستمرار ساعة غير منتظمة يتحرك فيها العقرب فجأة ، ثم يبقى ما كنا سنين بل قد يكون أجيالا

محمد أحمد بدوية

# حياة أديب

عُرف جولدسمث فى أوساط الأدباء وبين القراء، فتوفر له المال ، وهجر الغرفة الحقيرة التى كان يقطنها ، وشغل حجرة فاخرة فى أحسن أحياء المدينة ؛ ولكنه كثيراً ما كان يعود إلى الحياة الوضيعة الأولى كلما اشتدت به الأزمة وضاق به العيش . وفى عام ١٧٦٤ أفلس الرجل ولم يبق فى جيبه درهم واحد ، وهددته ربة الدار بإخلاء مسكنه ، فأرسل إلى صديقه جنسن يطلب إليه النجدة ، فبعث إليه جنسن بجنيه واحد ، وبلّغه الرسول أن صديقه آت على الأثر . ولما جاء جنسن ألفى صاحبه قد اشترى بهذا المال اليسير زجاجة خمر ، فجذبها من يده وعنّفه على سوء فعلته ، وطلب إليه أن يثوب إلى رشده وأن يحسن التصرف فى ماله ؛ فأجابه جولدسمث أن لديه رواية قد أعدّها للطبع والنشر ، فألقى عليها جنسن نظرة وقدرها قدرها ، ثم أسرع بها إلى أحد الناشرين وباعها على التو بستين جنيها وعاد بالمبلغ إلى صديقه . فدفع جولدسمث أجر حجرته ، ودعا صاحبة الدار وصديقه الأديب إلى تناول الخمر على حسابه ... هذه الرواية التى باعها جنسن هى الرواية الخالدة « قسيس ويكفيلد » .

ولكن قبل أن تطبع هذه الرواية بلغ جولدسمث أوج الشهرة الأدبية . وذلك أنه فى ديسمبر من عام ١٧٦٤ نشر قصيدة عنوانها « المسافر » ، وهى أول أثر أدبى أخرجه مذيلا باسمه . وقد رفعته هذه القصيدة تواً إلى مصاف كبار الأدباء الإنجليز ، وشهد له النقاد بالإتقان والجودة . وتختلف القصيدة عن كل ما كتب جولدسمث طوال حياته الأدبية ؛ فالآراء عنده أجمل دائماً من الفكرة ، ولكن الفكرة هنا خير من الآراء . « المسافر » قصيدة فلسفية ، موضوعها أن جوّالاً إنجليزياً ألقى عصا التسيار على قمة من قمم جبال الألب ، حيث تلتقى ثلاث من ممالك أوروبا العظيمة ؛ ويرسل الرجل الطرف إلى ماحوله من فضاء ، ويذكر رحلته الطويلة ، ثم يأخذ فى وصف مختلف المناظر والأجواء والحكومات والأديان وطبائع الأمم التى مر بها ؛ ثم ينتهى إلى أن سعادة الإنسان لاتتوقف كثيراً على النظم السياسية للدول ، وإنما عمادها مزاج الفرد واستعداده العقلى .

وقد أعيد طبع هذه القصيدة أربع مرات قبل أن تظهر قصة « قسيس ويكفيلد » . وما أن ظهرت هذه القصة حتى لقيت رواجا كبيراً ؛ وبقيت حتى اليوم من خير ماق الأدب الإنجليزى من قصص . وفى تكوين القصة كثير من العيوب : فكثير من حوادثها لايحتمل الوقوع ، وفيها إغراب فى الخيال لانجده حتى فى قصص الجن والسحرة ، ولا يربط حوادثها رباط من العقل والمنطق . ويقول المؤلف نفسه فى مقدمة الكتاب :

« فى هذا الكتاب مئات من الأخطاء ، ولدىّ مئات من الأدلة أستطيع أن أسوقها لبيان ما فى هذه الأخطاء من جمال ، ولكني لست بي حاجة إلى ذلك ؛ فالكتاب قد يكون ممتازاً مع كثرة ما فيه من أخطاء ، وقد يكون مملا دون أن تجد فيه مغمزاً واحداً » . وبطل هذه الرواية يجمع فى شخصه ثلاثاً من أعظم مايتميز به الإنسان من صفات : فهو قسيس ، وفلاح ، ورب أسرة . رحمته مهماً غيره ، متواضعاً ، قليل الثراء ، عظيما فى المحن . ولكن هل تسرّ هذه الشخصية أحداً فى عصرنا هذا الذى يطمح إلى جمع المال وإلى تعقيد العيش؟ إن أولئك الذين يغرمون بالحياة الرفيعة قد يزدرون السذاجة التى تتجلى فى المدفأة الريفية التى يأوى إليها هذا الرجل . وأولئك الذين يخلطون بين الفكاهة البريئة وبذاءة اللسان ، قد لايجدون فى حديث هذا الرجل البرىء ما ينم عن فطنة وذكاء . وأولئك الذين تعلموا السخرية بالدين ، سوف يضحكون من رجل يستمد عزاءه فى بلواه من عقيدته الراسخة فى الحياة الآخرة » .

وفى الفصول الأولى من هذه القصة حلاوة الشعر الريفى ، كما أن فيها حيوية الملاهى .

وقد شجع نجاح جولد سمث ككاتب روائي أن يعالج المسرحية. فكتب رواية « الرجل الطيب » . ولم يبلغ جولد سمث بمسرحياته حد الإجادة، غير أنها درّت عليه ربحاً وافراً .

وفي عام ١٧٧٠ أخرج جولد سمث قصيدته الشهيرة « القرية المهجورة » ؛ وقد قصد بها تصوير الموات الذي لحق بالقرى بعد الثورة الصناعية في إنجلترا ، وهجرة الناس إلى المدن . ولاقت هذه القصيدة من القراء ترحيباً أكثر مما لاقت قصيدته السابقة « المسافر » . في هذه القصيدة ينقم الشاعر على الثروة والترف ، ولكنه يقدم — دفاعاً عن رأيه — منطقاً سقيماً لا يقبله العقل السليم .

ولكن هل نحكم على القصيدة بما فيها من صحة الفكرة ؟ كلا ! فليس من واجبات الشاعر أن يحسن التعليل والتدليل ، وإنما عليه أن يجيد الوصف ، كما أن عليه أن يفتح عينيه على العالم الذي يعيش فيه ، وأن يكون دقيق الملاحظة ، وأن يرسم لنا من الحياة صوراً صادقة من الواقع ، وألا يعرض علينا صوراً مشوهة من الحياة الواقعية لا وجود لها ولا يمكن أن يكون لها وجود . وماذا عسى أن نقول في هذا المصور الذي يخلط في صورة واحدة بين مناظر الربيع ومناظر الشتاء ، فيجمع في صورة واحدة بين الزهر والجليد . وهل يكفينا دفاعاً عن مثل هذه الصورة أن نقول إن المصور أتقن إبراز الألوان في كل جزء على حدة ، فالزهر زهر والجليد جليد ؟؟

في قصيدة « القرية المهجورة » مثل هذا الخلط بين الزهر والجليد ، ففيها صور مختلفة ليس بينها انسجام أو تناسق . فالشاعر يصور لنا القرية في صورتين : يصورها لنا جميلة سعيدة ، ثم يصورها بعدئذ بائسة قبيحة . والقرية الجميلة التي يصورها الشاعر صورة خيالية لبلد لا وجود له ، وما حل بها من خراب مبالغة إلى أقصى الحدود .

ثم عاد جولد سمث إلى الكتابة المسرحية ، فأخرج رواية « أذلت نفسها فتمكنت » ، وهي ملهاة مثيرة الضحك ، وقد نجحت نجاحاً كبيراً وراجت ، وأقبل الناس يرونها ممثلة على المسرح .

وبينما كان جولد سمث يشتغل بكتابة هذه المسرحية وينظم « القرية المهجورة » ، كان يقوم بعمل آخر ليست له قيمة أدبية كبيرة ، ولكن درّ عليه مالاً كثيراً . وذلك أنه أخرج لتلاميذ المدارس كتاباً عن « تاريخ روما » ، وآخر عن : « تاريخ انجلترا » ، و« تاريخ اليونان » ، و« التاريخ الطبيعي » . ولم يكلف نفسه في تأليف هذه الكتب مشقة البحث ، وإنما اكتفى بالاختيار والاختصار ، والتعبير بلغة واضحة سهلة عما كان في بطون الكتب الأخرى التي كان حجمها وجفاف لفظها يجعلانها غير صالحة لاستعمال التلاميذ . وقد أخطأ في هذه الكتب أخطاء فاحشة ، لأنه هو ذاته لم يعرف شيئاً على وجه الدقة . فجاء في كتابه « التاريخ الطبيعي » خرافات عن عمالقة يقطنون بتاجونيا ، وقردة تنطق بالحكمة ، وبلابل تستطيع رواية الأحاديث الطويلة . ويقول دكتور جنسن عنه في هذا الصدد : « إن أقصى ما يعرف جولد سمث عن علم الحيوان أن يميز بين الحصان والقردة » . ومما يؤيد ضعف معرفته بالعلوم الطبيعية ما ذكر من أن الشمس يستطيل شكلها في الأبراج الشمالية ، وأن الإنسان يحرك فكه الأعلى عند مضغ الطعام . ولكنه — رغم جهله في هذه الناحية — من الكتّاب القلائل الذين حاولوا تبسيط العلم وتيسيره على الطلاب . وقد كان بارعاً في الاختيار والتلخيص ، فكان الأطفال يستمدون من كتبه متعة كبيرة ؛ وهي — من أجل هذا — تستحق منا شيئاً من العناية والدراسة » .

وأصبح جولد سمث الآن رجلاً ثرياً يستطيع أن ينعم بالراحة والترف ، وبات يتمتع بشهرة عريضة ، وأخذ نجمه في الصعود ، واختلط بأهل الأوساط العلمية والأدبية ، وعرف خير المحدثين في زمنه : عرف جنسن زعيم الأدب في عصره ، و« برك » الخطيب المصقع ؛ و« جارك » مدير المسارح الكبيرة في لندن ؛ وتطلع إلى أن يباريهم في طلاقة اللسان والحديث . ولكن من العجيب أن هذا الرجل الذي كان يتميز أسلوبه حين يكتب بالوضوح والجودة

والرشاقة ، كان كلامه حين يتحدث فارغاً يكاد يكون هجيجاً بغير معنى . وما أبعد الشقة بين ما كان ينشر وما كان يقول . قال عنه جاريك : « إذا كتب فهو ملاك ، وإذا تحدث فهو ببغاء » . الفكرة الأولى إذا طرأت لجولد سمث مضطربة سخيفة ، فإذا أعطيته فسحة من الوقت انضجت الفكرة في ذهنه وعبر عنها تعبيراً جميلاً . ومن ثم فإن جولد سمث إذا كتب سحر قارئيه ، وإذا تحدث صدّع سامعيه . وقد أدرك ضعفه في الحديث ، ولكنه لم يملك القدرة على ضبط لسانه ، فلم يمتنع من الإدلاء بالرأى إذا دعا الداعي ، ولكنه سرعان ما يحس ركاكة القول وتعلو خديه حمرة الخجل .

ومن أجل هذا كان عارفوه وخلطاؤه لا يقدرونه قدراً كبيراً ، يحبونه ولا يحترمونه . كان طيب القلب إلى حد الضعف ، كريماً إلى حد البذخ ، متسامحاً إلى حد يشجع غيره على النيل منه ، جواداً حتى لم يبق له ما يسدد به دَيْنه . وكان مغروراً ، مندفعاً وراء [illegible] ، مسرفاً ، قصير النظر . وفوق هذا كله كان [illegible] الحسد . غير أنه كان يكتم في قلبه حسده فلا ينال بالأذية أو الخيبة من منافسيه . كان صريحاً صراحة الأطفال ، لا ينافق ولا يداهن ، ولا يخفى رأيه حتى وإن كان في الرأى إيذاء لسامعيه . إذا أحس بالغيرة لا يتظاهر بعدم الاكتراث — كما يفعل غيره من الأدباء — ولا يطرى إطراء خفيفاً ينم عن عدم الرضا والقبول ، ولا يستل سيفه الجارح في الظلام يقتل به العدو دون أن يراه ؛ وإنما كان قلبه على لسانه ، يصرح بما في نفسه من غيره . سمع بُزْوِل — مؤرخ حياة جنسن — مرة يكيل المدح لهذا الأديب العظيم فقال له : « أرجوك ألا تمدح الرجل بهذه النعوت ، فإنك تحطم قلبي أيما تحطيم » . لم يكن جولد سمث ذلك الأديب الذي إذا لاقى أديباً غيره أطنب في مدحه والثناء عليه ، وإذا ما خلا إلى نفسه أرسل فيه النقد اللاذع ينشره في الصحف بغير توقيع . ولم يتخذ يوماً من الناس وتدبير الحيل مكيدة لغيره .

ويعتقد كثير من مؤرخي الأدب أن جولد سمث كان رجلا تاعساً قست عليه صروف الدهر ، وقضت عليه ظروف الحياة أن يكافح المشقات والمصاعب حتى تحطم في نهاية الأمر روحه . ولكن ما أبعد هذا القول عن الحق والصواب . أجل إن الرجل لاقى في حياته كثيراً من أسباب البؤس والشقاء ، ولكن ذلك كان قبل أن يلج باب الأدب . وما أن ظهر اسمه على الصحيفة التي نشرت له قصيدته « المسافر » حتى أخذ المال ينهال عليه انهيالا ، ويتدفق إلى جيبه كالسيل العرم . ولئن وقع بعد ذلك في المحن فليُلْقِ على نفسه اللائمة ولا يرى منها الظروف . ولكن جولد سمث لو استحوذ على كنوز سليمان ما كفته ، فقد كان ينفق ضعف ما يربح . يتأنق في اللباس ، ويسرف في الولائم ، ويرمي بالمال عند أقدام الحسان ، وما تقدم إليه فقير إلا أعانه . ولكن هل تبددت كل ثروته في اللباس والولائم ، وفي الصدقات وعند النساء ؟ كلا ! لم يكن [illegible] كان جولد سمث منذ حداثته مقامراً جريئاً [illegible] في اللعب أو يثنيه ؛ فاضطر إلى الاستدانة من تجار الكتب والناشرين حتى نضب ماله وأفلس ، ولم يكد يجد ما يسد به الرمق ، فتحطمت قواه ، وخارت روحه ، وألمت به حمى شديدة . واعتمد على علمه بالطب وتعرض لنفسه بالعلاج ، ولكن يا ليت ثقته في طبه كانت كثقة الناس فيه — إذن لأنقذ حياته من براثن المرض ! قال الصديق له يوماً : « إنني لا أمارس مهنة الطب ، ولا أتكسب بها ، ولكني أصف لأصدقائي العلاج بغير مقابل » . فأجابه الصديق : « بل صفه لأعدائك ! » . ووصف جولد سمث لنفسه الدواء فتضاعف عليه المرض ، واضطر إلى استدعاء الأطباء الخبراء . ولكن بعد ما استفحل الداء . وعزّ عليه النوم ، وفقد شهية الطعام ، واختل توازن عقله في أيامه الأخيرة .

وفي ٣ أبريل من عام ١٧٧٤ فاضت روحه وهو في السادسة والأربعين من عمره ، وبكاه أصدقاؤه وأحباؤه بالدمع السخين .

محمود محمود

صحيفة الفكر :

# من أعلام الاسلام

**محمد عبده ... الدكتور عثمان أمين**

« محمد عبده » من أعلام الإسلام في العصر الحديث وفي جميع العصور . وقد أحسنت « لجنة دائرة المعارف الإسلامية » بضم هذه الشخصية الإسلامية الحديثة إلى سلسلة أعلام الإسلام ، فالإسلام وحدة في جميع الأجيال ، ورجاله هم رجاله من قدامى ومحدثين .

ولكن شيئاً واحداً قد أثر في قيمة هذا الاختيار الموفق . ذلك أنه كان من المستطاع أن تكون هذه الدراسة خيراً مما كانت ؛ فشخصية الأستاذ الإمام وسيرة حياته أخصب بكثير من تلك الصورة التي أخرجها الأستاذ المؤلف : الدكتور عثمان أمين .

ولقد تمتعت شخصيات كعمرو بن العاص والمنصور ابن أبي عامر ، بل كبشار وأبي نواس ، من شخصيات هذه السلسلة بما لم تتمتع به شخصية الأستاذ الإمام من الدراسة والتمحيص ، ومن التجلية والتصوير !

لقد جمع المؤلف الفاضل طائفة صالحة في هذا الكتاب من أخبار الأستاذ الإمام وأقوال بعض إخوانه وتلاميذه عنه ، وآراء بعض من عاصرهم أو قابلهم من الشرقيين والغربيين فيه ، تعد من يريد الكتابة عن « محمد عبده » عادة خامة صالحة للكتابة ؛ ولم يكد يتجاوز هذا في كتاب عنوانه : « محمد عبده » .

ونحن نعتقد مخلصين أن « الإنسان » ليس هو الحوادث والأخبار ، إنما هو استجاباته لهذه الحوادث ، ودلالة هذه الاستجابة على « نفسه » وطبيعته . وليست تعنيني أخبار كائن من كان إلا بمقدار ما أعرف « من هو » هذا الكائن ؛ وإلا بمقدار ما أجد فيها « مفتاح شخصيته » وطبيعة نفسيته .

وشيء من هذا كله لم يتعرض له مؤلف « محمد عبده » إلا لماما . إذا كان همه موجهاً إلى جمع طائفة من أخبار نشأته وتعليمه وأسفاره وأعماله ، مما تفرق في كتب الشيخ رشيد رضا وتشارلز أدمز وعبد الرحمن الرافعي ، وفي بعض الصحف والمجلات من هنا أو هناك .

ولا أريد أن أقلل من أهمية جمع هذه الأخبار والأقوال ، فهي المادة الأولية الضرورية للدراسة ، وجمعها هو الخطوة العلمية البدائية . ولكن الوقوف عند هذه الخطوة تقريبا لا يجعل هذا العمل بحثا ولا ترجمة ولا صورة حياة . ولا بد من الخطوة التالية ، وهي تنسيق هذه الحقائق وتبويبها ، واستنطاق هذه الشواهد وتحليلها ، وتوجيهها جميعا لإحياء « الشخصية » المعروضة ، وكشف دخائلها النفسية ومنحنياتها والعنوان المميز لها من بين الشخصيات .

ولقد أراد المؤلف الفاضل أن يصنع هذا في النهاية فكتب فصلا أسماه : « شخصية الأستاذ الإمام » استغرق فيه ثماني صفحات .

ونحن نعتقد أن المجال لم يكن ضيقاً أمام المؤلف ، لو أنه عمد إلى طريقة أخرى غير طريقة السرد والجمع التي عمد إليها ، وأن هذا الفصل الأخير وحده كان فيه متسع لو زاده بضع صفحات يتسع لها حجم الكتاب ؛ بل لو اتبع في هذه الصفحات الثمانية طريقة التصوير السريع ، واستخراج دلالة الحادثة التي يسوقها وعدم الوقوف عند تسجيلها .

فالمهم أولا في دراسة رجل كالشيخ محمد عبده ، هو رسم صورة واضحة مكتملة للعصر الذي عاش فيه ، والبيئة التي عاملها ؛ وهذه الصورة لا تلزم في دراسة أخرى لزومها في دراسة محمد عبده « المصلح الديني الاجتماعي » ، الذي

يقاس جهده وتقاس عظمته بمقدار ما صارع بيئته وما ترك فيها من آثار . والشيخ محمد عبده بالذات لا تبرز عظمته إلا بوضع هذه الصورة أمام صورته ؛ ومقابلة عقلية جيله بعقليته . ولا يكفي أن يذكر المؤلف طريقة الدراسة في الأزهر أيام دراسته في هذا الاختصار الذي ذكره ، ولامعارضة الأزهريين له يوم أن هم بإصلاح الأزهر فيما بعد .

كلا لايكفي هذا لبيان عظمة محمد عبده بالذات ، فمحمد عبده – في الواقع – كان يواجه جيلا كاملا في شتى نواحيه العقلية والنفسية والدينية ، ولم يكن الأزهر إذ ذاك إلا صورة من صور الجيل ، الذي هزه جمال الدين أول هزة ، وترك لمحمد عبده أن ينشئه نشأة أخرى ، وقد فعل وبذل حياته كلها ليصل إلى هذه الغاية الكبيرة ، بحيث تعد النهضة العقلية الحاضرة بما فيها الجانب السياسي إشعاعات لهذه الموجة الكبيرة ، موجة الإمام .

وواجب من يكتب عن « محمد عبده » أن يبرز عظمته كله ، لا في سياق الحوادث والأخبار ، ولكن بالتصوير والتحليل ، وإلا كان عمله تصغيراً لهذه العظمة من حيث لايريد .

أقول « تصغيراً » وأعنيها ؛ ذلك أن أقوال محمد عبده وأعماله حين تذكر دون أن توضع أمامها مرآة العصر الذي قيلت أو عملت فيه ، قد تبدو لأبناء جيلنا صغيرة ، بالقياس إلى مابلغنا إليه اليوم ، وإن كان بعضها ما يزال محتفظاً بعظمته حتى في الجيل الحاضر . ولكن دلالة هذه الأقوال والأعمال هي التي تحتفظ بقيمتها على مر العصور . وهذه الدلالة هي التي أهملها الدكتور المؤلف في معظم الأحايين .

هذا وشيء آخر . ما لون هذه العظمة واتجاهها ؟

إن العظماء كثيرون ، ولكل منهم سمة واتجاه ، فما سمة محمد عبده واتجاهه ؟

إن قول المؤلف : « إنها شخصية معقدة قوية نشأت أولا في نطاق ضيق ، نطاق الدين واللغة والفلسفة ، ولكنها مالبثت أن جاوزته وامتد نشاطها إلى دوائر أوسع » . أو قوله : « كان رجلا عظيما لأنه عاش لأمته ورسالته أكثر مما عاش لنفسه ولأسرته . . . » .

هذا القول العام لايعطي شيئاً عن نوع هذه الشخصية ، وما قاله عنها هنا تشترك معها فيه شخصيات أخرى كثيرة . وفي عصر محمد عبده بالذات قد يشترك جمال الدين وسعد زغلول معه في هذه المشخصات !

إنما وظيفة الدراسة الحديثة أن تميز لنا أنواع العظمة في هؤلاء المتعاصرين أولا ، وفي كل عظيم بين عظماء الإنسانية جميعا .

وهذا لايحتاج إلى فراغ كبير ، إنما يحتاج إلى خبرة « بتصنيف » العظمات ، وتمييز النفسيات .

لقد كانت عظمة محمد عبده عظمة « المصلح » في غير ثورة ولا عنف ؛ وكانت عظمة جمال الدين عظمة « الثائر » الملهم يهيج النفوس إلى الثورة ؛ وكانت عظمة سعد زغلول عظمة « الزعيم » الذي يلهم قيادة الملايين .

وهذه العظمات الثلاث قد تتكافأ في قوتها ، ولكنها تختلف في اتجاهها ، كما تختلف في محيطها .

فجمال الدين كان يريدها ثورة سياسية أولا ثم اجتماعية في الشرق كله ؛ ومحمد عبده ، كان يريدها إصلاحا دينيا ونفسيا وفكريا واجتماعيا في العالم الإسلامي ؛ وسعد زغلول كان يريدها نهضة وطنية مصرية .

وكان أمام المؤلف مايحدد به طبيعة الإمام واتجاهه من الأخبار والأقوال التي أوردها في نفس كتابه ، ولكنه تركها غفلا بدون استشهاد ولا تحليل .

لقد كان يجد في موقفه من الثورة العرابية ، وعدم موافقته على الطفرة في المطالب الدستورية ، وارتياحه لإصلاحات رياض باشا ، وفي طريقته في إصلاح طريقة

التدريس وللمناهج بالأزهر ، وأخذه ذلك بالرفق المصحوب بالعمل ، وفي قوله حين عين قاضيا : « لم أخلق قاضيا ولكني خلقت معلما ... » ، وفي كثير غيرها من الحوادث والأخبار والأقوال لمحات واضحة من هذه الطبيعة الموحدة .

ثم لقد كانت للإمام صفات نفسية وعقلية أساسية :

قوة الشخصية التي لا تهي لخصومه مواجهته فيدسون له الدسائس من بعيد ، ثم تكل شخصيته لإفسادها ، ويبلغ من قوتها أن يلتجئ إليها خصومه أنفسهم حينما يقعون في الأزمات الشديدة ؛ وحادثة الخديو عباس والرجل الأرمني والمعتمد البريطاني معروفة ولها نظائر أخرى ...

والمروءة التي تلزمه بالإيثار والناس ؛ ومناصرته لثورة العرابيه بعد تورط زعمائها — مع مخالفته لهم في مبدئها — مثل من هذه المروءة النادرة ، ومثلها في الدلالة حوادث أخرى فردية مذكورة ، كاف نفسه فيها — دفاعا عن الحق ونجدة للضعفاء — ما لم يكلفه أحد ، وما لم ينتظره أحد كذلك .

وقوة المنطق ووضوحه ؛ ومحاوراته وردوده الشفوية والمكتوبة كثيرة . وقد ذكر المؤلف بعضها حوادث وأخبارا وأقوالا ، دون أن يبرز هذه السمة وينص عليها .

***

إن موضوع « محمد عبده » لا يزال في حاجة إلى الدراسة على نحو جديد ... وإن كان الدكتور عثمان أمين يستحق الشكر لجمعه هذه المادة الخامة من المؤلفات المتفرقة والصحف الموزعة . فقد هيأ لمن يكتب عن « محمد عبده » جزءا قيما من مواد الدراسة ، ووضع لبنة في هذا العمل تذكر له .

سيد قطب





إنه في يوم الأحد ١٢ نوفمبر سنة ١٩٤٤ من الساعة الثامنة أفرنكي صباحا بناحية قها زمامها بعزبة حمدي حتى نهاية اليوم وفي يوم الخميس ١٦ نوفمبر سنة ٤٤ من الساعة الثامنة أفرنكي صباحا بسوق طوخ إذا لزم الحال .

سيباع بطريق المزاد العلني الجبري القانوني الأشياء المحجوز عليها تنفيذا بمحضر الحجز التنفيذي المؤرخ ٤ أكتوبر سنة ١٩٤٤ تنفيذا للعقد الإعلان الرسمي المؤرخ ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٤٢ بقلم العقود الرسمية بمحكمة مصر المختلطة وفاء لمبلغ ٢٠٠ م ٩٤٩ جنيه بخلاف ما يستجد من المصاريف كطلب حضرة صاحب العزة عثمان بك صبري بصفته القيم بالإسكندرية ومحله المختار مكتب حضرة الأستاذ عبد المجيد رستم المحامي لدى محكمة النقض والإبرام والمحكمة العليا الشرعية بميدان المنتصر رقم ٢ بالقاهرة ضد فرج أفندي حيص القيم بطوخ مركزها . بيان المحجوزات :

(١) زراعة ٢٣ فدان أذرة شامي ينتج منها ٦٩ أردبا تقريبا (٢) أربعة أحمال بوص تقريبا من كل فدان أي ٩٢ حملا تقريبا . (٣) زراعة ٥ أفدنة أرز تقريبا . (٤) زراعة ٨ أفدنة قش مكانس (٥) كوم قش مكانس بقدر طن ونصف تقريبا . (٦) ٣٠ أردب قش مكانس جاهز فعلى راغب الشراء الحضور في الزمان والمكان عاليه . المأمور

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٩ شارع الكرداسي — عابدين — القاهرة